النميمة الحلال

اسم الكتاب: النميمة الحلال

اسم الكاتب: خليل الزيني

تدقيق لغوي: مصطفى حسين

تصميم الغلاف: محمد دربالة

الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم

الطبعة / الأولى – 2020 م

رقم الإيداع: 20997 / 2020

الترقيم الدولي: 2 – 11 – 6852 – 977 – 978

للنشر والتوزيع

Arabic Library

arabiclibrary2017@gmail.com

almaktaba79@gmail.com

Facebook.com/arabiclibrary2017

01030365801 - 01014977934

جميع الحقوق محفوظة

للمكتبة العربية للنشر والتوزيع، ولا يجوز استخدام أي من المواد التي يتضمنها هذا الكتاب، أو استنساخها أو نقلها، كليا أو جزئيا، في أي شكل وبأي وسيلة، دون الحصول على إذن خطي من الناشر.

النميمة الحلال

مجموعة قصصية

خليل الزيني

للنشر والتوزيع
Arabic Library

الإهـداء

إلى عشاق الحكايات ... وسُمار الليالي .... من أهل القِيل والقال

وإلى من يتحروا أخبار الناس ....

إن وجدتم أنفسكم على هذه الصفحات ... أهذه صدفةٌ؟ ربما!

وربما من قبيل الفضول مثلكم.

فسامحوني.

فهذه المجموعة منكم وعنكم وإليكم.

سعيدٌ لأنني بين أيديكم . الآن.

خليل الزيني

الحرمان

هي بين أخواتها، لا مثيل لها، أشتهيها وأتمناها، الكل يلاحظها ويراقبها، ويطلقون التعليقات عليها.

أتحين الفرصة لأمر عليها وأراها، أقف ساهمًا أمامها؛ فلها نداء مغرٍ، نداء صامت، لا بدَّ أن تلبيه...

فهي لامعة لها بريق، جذابة، لافتة للنظر، لينة الأعطاف، انبعاجاتها مثيرة، متناسقة مريحة، ذات قالَب بديع، ظلها خفيف، لا، لا، إني أتلهف عليها.

أخاف أن أفقدها؛ سأسبق الجميع وأظفر بها، لكن للأسف كم مهرها؟

قبض صاحب المحل الثمن وأعطى الحذاء لغيري، انصرفت على مهل ساخرًا من ذكريات سابقة مماثلة.

أسئلة الأيام الصَّعبة

سأظلُّ شابًّا على الرغم من مرور السنين لأني ملتصق بدنيا الشباب...

كان هذا شعاري وأنا على أبواب التعيين بالجامعة... فعلى مدى عشرين عامًا من الالتصاق بصفوة شباب الجامعة في الكلية؛ تدريسًا والتحامًا معهم في أنشطتهم، كنتُ أشعر كل عام بتجدد أملي وأفكاري، لكن منذ خمس سنوات بدأت أشعر بالملل، وسأمْ يتسرَّب من عيون إخوتي الطلّاب لينصب في رؤيتي، أكيد هذه آثار آخر مناقشة فكرية مع الطلبة حول توقّعاتهم للمستقبل، لقد شاعت بينهم روح اليأس حتى صارت الشيء الوحيد الذي يتفق عليه أغلب أبناء هذه المرحلة.

نبَّهني تداخل أصوات، إنه عراك كل سنة حول بطل الدوري ومسابقات الكرة، خرجتُ أستطلع الأمر، وكم كانت الصدمة! الشجار كان يقوده أحد الأوائل الذي سيصبح في يوم قريب زميلًا، أستاذًا!

ترحمتُ على أيام الماضي الجميل عندما كنتُ طالبًا أهتم بقضايا الوطن وهمومه، عندما كنا نعلن رأينا صراحةً ... آه، لقد استطاع "ياسر" بأسئلته أن يصب اليأس في نفسي، جعلني أبكي على الماضي وأنسى حبي للغد.

معذور في كل أسئلته؛ فهي إلى حدٍّ ما صحيحة، وهذا أول سؤال رأيته بعيني، كان السؤال عن البحث عن متنفَّس للانتماء والتعصب، فليس هناك سبيل إلا الكرة.

"ياسر" كان يلاحظ جيدًا وجعلني أنصرف إلى بعض المظاهر؛ الأزياء ألوانها غريبة وتراكيبها متناقضة، إنه نفس الإهمال المقصود في الزي الغربي.

حاولتُ الدفاع بأن هذه الأشياء في القشرة، فردني "ياسر" بأن هذه القشرة هي سلَّة المهمَلات، والشيء الوحيد القادر على تنفيذه من النموذج الغربي، وما عدا ذلك فممنوع.

صدق "ياسر"، عشرون عامًا مضت وأنا أدرِّس النموذج الغربي للاقتصاد ولم أُقدِّم ما يدلُّ على

اعتزازي بفكري ولغتي وقوميتي، شاركت في ترجمة بعض الكتب، ليس هذا بدليل كافٍ.

ظلت مقالة "ياسر" وهمومه تلح عليَّ حتى وأنا صاعدٌ الدَّرَج لزيارة أختي العائدة إلى الوطن بعد غياب سبع سنوات في الوطن البديل، ماذا أصاب الحيَّ!

أهذا هو الحيُّ الذي نشأتُ فيه وكان على أطراف المدينة وسكانه قلة!

الشارع جراج مفتوح، والسيارات- بكل شكل- أحد مظاهر الثراء وزيادة المال، على عكس ما أرصده اقتصاديًّا!

صعدْتُّ الدَّرج حتى الطابق الثالث، وكم كانت صدمتي! فكل ما صادفني شركات بأسماء أجنبية، وطبعًا هم "الوكلاء الوحيدون"!

بكل فخر السلع تدلُّ على الاستهلاك المظهري والترقي، أما أخبار أختي فقد زادت الصدمة؛ لقد عادت هي وزوجها الأستاذ الجامعي لتشارك في "سوبر ماركت الجامعة" كما يسمِّيه "ياسر"، ستكون ممثلة الجامعة الأم في فرعها الخاص هنا، هذا نوع من الاستهلاك أضرُّ من الاستهلاك المادي...

لقد أصابتني عدوى الشيخ "ياسر"!

فوجئتُ بكناية "ياسر" القديمة على لساني، فياسر هو أيضًا سؤال، يفجر أسئلة؛ أكثرنا مالًا وأشدنا التزامًا من حيث الدين، ولم يفرض طبائعه على أحد منا ولم يخرج بفكرة علينا، كان فكره لنفسه، والأغرب أنه تزوج كندية، والأجمل حين يحاول ياسر رد المتدينين الجدد بالعقل والمنطق، وكثيرًا ما كان يكف عن الحوار دون نتيجة على الرغم من قوة حجته، لماذا لا يكمل الحوار؟، غالبًا لأنه يشعر بعدم صدق هؤلاء المجادلين!

مررتُ بفيلا ناجي، كما هي لم تتغيَّر، الوقت غير مناسب للزيارة، على استحياء وخجل طرقتُ الباب، ففتحت أم ناجي الباب وهي ترحب بي وتبدد خجلي وتلومني على عدم السؤال، ونادت الخادمة هاجر ثم سألتني:

- هل أنت جائع لكي أُعِدَّ لك الغداء؟

كفَّتْ عن الإلحاح بعد أن علمَت أني كنتُ في ضيافة أختي فاكتفت بمشاركتي القهوة، وشاركتني الجلسة مع ناجي في الورشة، لقد حوَّل ناجي جزءًا من الشرفة العلوية إلى ورشة لأشغال الدعاية والإعلان، فهو فنان رسام وخطاط، واستعان بموهبته على متطلبات الحياة.

مع رائحة القهوة على الموقد الكحولي ظهرت رائحة الوفاء للقديم والحب بلا غرض أو هدف "ورُبَّ أخٍ لي لم تلده أمي".

تلقيتُ الفنجان من يد أُم ناجي وسألتها عن سر عودة هاجر الخادمة، الجواب كان قصيرًا ومريرًا، إنه السفر!

بعد زواجها سافر الزوج إلى الخارج، وعاد بالخير، لكن لامرأة أخرى ومشروع بعيد عن صنعته، فطرقت باب البيت الذي تربت فيه.

الصور التي رسمها ياسر بأسئلته وضَحت ملامحها القاتمة الآن، دخلتُ أتروح في تكعيبة العنب ورائحة مزروعات أم ناجي التي كانت تردد

"قال يا ناكر خيري، بكرة تعرف قيمتي من قيمة غيري"

ماذا! اعترتني الدهشة والرغبة في الضحك بصدق، أم ناجي ــ شُهْرت هانم ــ تتحدث بالأمثال الشعبية!

لا بدَّ أن المجتمع انقلب رأسًا على عقب! تنبهت إلى أن فيلا سبأ المجاورة للحديقة في سبيلها إلى الهدم.

"أم ناجي" تقصُّ عليَّ خبر الفيلا المشؤومة، لا، هناك شيء جديد في طباع ماما شُهرت؛ قد صارت تتناقل أخبار الناس!

صاحب الفيلا ضابط أُحِيلَ إلى الاستيداع ودخل زمرة رجال الأعمال، سعدت الزوجة بنجاح زوجها، وشبَّت البنت الصغرى حُرَّة أكثر من اللازم "اختلى بها شاب في الفيلا أكثر من مرة" ؛ ألجمتني الجملة! لعلها من نسج خيال الرواة ، "ومن أجل إتمام الزواج سرقت البنت خزينة الوالد وهربت مع الولد الملعون، تركها فريسة لثلاثة من أصدقائه الذين حاولوا قتلها، وها هي في المستشفى بين حياة الأموات أو موت الرحمة "! وأخذتْ تدعو لها.

أسئلة ياسر الصباحية تُفسِد النهار والليل، والعمر كله، وقد بدأتُ أسجل ملاحظاتي في ورقة، وأسئلة ياسر في ورقة أخرى...

دخلتُ أتنسَّم عبق الوفاء للصديق والأمانة في مأمور ضرائب رفض رشوة كبيرة يومًا ما، خرجتُ وأنا أسجل سؤالين لماذا كثرت الجرائم مع توحشها؟، وتعددت أشكالها، ألهذا دلالة!

أسرعتُ إلى المنزل، جو الشارع يسوده التوتر والخمود المترقب، وحرس العمارة قابضون على المدافع باسترخاء، سيارة الشرطة تقف في المقابل ومعها سيارة إسعاف...

إلحاح الجريمة وربطها بالاقتصاد ـ تخصُّصي- جعلني أفزُّ صاعدًا اشمئزازًا، فتحَت حماتي الباب، هي عندها حل الأسئلة الصعبة، لِمَ؟ إنها أستاذة في علم الاجتماع، وكم من مرة نقدتُ تخصصها بأنه... و...، إنني بحاجة إليها الآن لتحل لي الأسئلة الصعبة!

سلمتني نسخة من بحثها الجديد وقالت:

- كنت أحاول استقراء المجتمع فوجدته على بابك يقرأ نفسه.

- كيف يا أستاذة!

- حفل الزفاف الذي دُعيتَ إليه منذ أسابيع، ها هم أصحابه، يتعاركون وتظهر ظروف النشأة الأولى في تصرفاتهم، على الرغم من تقاربهم الفكري في التعليم الجامعي لا الثقافي.

غبتُ عن حديثها وأنا أسترجع حديث القاعة يوم الزفاف عنهم، فالعريس ابن رجل من كبار التجار، وكيل لاستيراد حديد التسليح، وزوجته العروس من العائدين إلى الوراء، فأمها بنت باشا رأسمالي، والأب رجل صناعي يجاهد لكي لا يتجاوز حافة السقوط، دخل لعبة الحياة النيابية مستغلًا خبرته وتاريخه، نجح وراجت نشاطاته وظل في صفوف الكبار، كل الأهل باركوا هذا الزفاف.

عقب عدة أسابيع غاب فيها العقل وهدأ فيها الشوق بدأ كل منهما يتصرف نحو الآخَر بلا حرَج، فكان التصادم ؛ تنبهتُ إلى حماتي وهي تجذب الورقة من يدي، وإلى أسئلة ياسر الصعبة!

ضحكتْ بصوت عالٍ:

- الآن آمنتَ بأهمية علم الاجتماع؟

أومأتُ برأسي أنْ نعم، لا بدَّ أن هناك سرًّا وهناك حلًّا لأسئلة ياسر الصعبة.

كان الجواب على لسان حماتي:

ـ علينا نحن علماء الجامعة أن ......

لكنني كنتُ شاردًا أحاول أن أدمج مشاهدات هذا اليوم.

لهذا لم أسمع جوابها.

تهاني

كنتُ أستقرئ وجهها – لا بدَّ أن هناك أمرًا عاصفًا– فعيونها لامعة من احتباس الدمع، أنفاسها لاهثة.

اقتربتُ منها أستوضح الأمر، همستْ بصوت مرتعش خافت النبرات سائلة، الأسئلة كانت تتسلل

– متلاحقة متقطعة– على شفاه حالمة آسفة:

– أصارت هي القريبة وإلى قلبك خليـ... لـ...لـ...لـ...لة!

وشهقتْ ولم أسمع باقي السؤال، ثم أكملت:

– أنا الحليلة، رفيقة درب الحياة والأيام الصعبة الطويلة.

أتذكر... وبالله عليك لماذا؟

ثم مططتُ شفتي وارتفع حاجباي وبسطت ذراعي كأني أسأل صمتًا، لماذا ماذا!

عادتْ إلى خواطرها المؤلمة:

– ألأنها جميلة؛ صرت تتمناها؟

لا أنكر أنها فاتنة – شقراء– لكنها بلا روح أو لغة حية، هي لغرض واحد، هي ليوم واحد، أما أنا...

ثم حُشرتْ الكلمات في حلقها وانهارت مرتجفة وعيونها تفيض ودارت وجهها بين يديها، وبإصبعين لامستُ الذقن المستدير، حنوًّا رفعتُ الوجه الشاحب – على غير العادة – كفكفْتُ الدمع ثم ضممت الكف وقبلت منه الراحة وأكملت نيابة عنها:

- أما أنتِ، فأنتِ الزوجة، أنت الأم، أنت ربة البيت، أنت النخل العالي الطراح الفواح ذو الظل البارد.

هدأ جريان الدمع. اتحدت يمناها بيمناي وربتُّ على يدها بيسراي:

- يا هبة الرب ما نسيت العهد فأنت سلافة عشقي وأحلامي، أنت غصن ما أصلب عوده، وأصلب ما فيه أعلاه!

أنت عصفور شاد من قيدي كان قد طار ولكنفي قد عاد.

ضحكتْ:

- ما أسعدني برفيق غيور دافئ الأعطاف متوهج الإحساس أمن مجاملات عابرة نغار!

- ليست مجاملات إنها تصرفات أصيلة لا عابرة ولكنها مرتبة...

هكذا علقتْ على تصرفات الأخرى وتأكدتُ من انقشاع سُحب الكآبة فلقد عادت أنفاسها للانتظام وارتسمت البسمة على وجهها كشمس الصباح الشاتي:

- يا تهاني ألم تكوني في شمس النهار ظلال آمالي، عند الفرح تزف التهاني وفي الأخرى بشرى تمني بالأماني!

انتظرتُ ردًّا ولكنه كان ردًّا صامتًا!

- يا تهاني، أكنتُ يومًا لئيم الطبع، دنيئًا، أكنتُ لأغدر أو أفارق أو أبعد عنك، أخسيسًا كنت؟

قاطعتني بصوت رقيق وقالت متنهدة:

- معاذ الله، معاذ الله، معاذ الله...

العِصِي

- لا يا عم الشباب لا بدَّ أن تأتي إلى المركز سيرًا على الأقدام.
- مشوار يا دكتور وأنا...

الطبيب (مقاطعًا):

– وأنت عم الشباب وفوق هذا البيت قريب جدًّا.

- لكن أنا لا أستطيع أن أمشي.
- (خلاص) تعال واستند إلى عكاز.

هنا كانت البداية طبيب العلاج الطبيعي ألزمني بأن أمشي إلى المركز الطبي كلما حان ميعاد الجلسة، الأهم أنه صرح لي بعكاز بعد جهد ولأي.

العكاز نوع من العِصِيِّ، وللعِصِيِّ ذكريات!

فالعِصِيُّ في حياتي كثيرة، كان أولها عصا عم الطيب إمام الجامع وشيخ الجماعة ومؤدب الصبية لكي يقيموا الصلاة ويلزموا الجماعة ـ والأهم والأدهى ـ ويراجعوا دروس الكتاب، كانت عصا الطيب نحيلة ورفيعة وطويلة أعلاها مقوس، أحيانًا كثيرة يستعملها كشكل عكاز في يمينه.

إذا أطاح بها في الهواء ليرهب أحدنا ـ عند الخطأ ـ فصوتها كرعد هادر وربما أشد رعبًا، أما حركتها فشهاب راصد لصبي مارق أو شيطان مارد والتهديد من آبائنا لأحدنا.

"طيب ها أقول لعمي الشيخ!".

كان يسبب لنا ذعرًا ـ كأنه الوعيد بيوم القيامة وعقابه لعاصٍ ـ ثم نرسل التوسلات وأجسادنا تكاد تذوب خوفًا طلبًا للرحمة من هذا العقاب القاسي.

ولت أيام عصا الشيخ الطيب التي ما زالت عالقة ببصري أحس لسعها حين أخطئ في التلاوة أو حين يتكاسل الصغار أمامي عن اللحاق بالجماعة ورغمًا عني علتْ وجهي البسمات مع نسمات الذكريات دارتْ الأيام وصرتُ من أصحاب العِصِيِّ للحاجة لا الوجاهة، نعم للوجاهة!

في بداية صباي رأيتُ جدي يملك من العِصِيِّ – ما شاء الله!– فهذه من العاج وتلك من الأبنوس والأخيرة من خشب الورد، الأشكال كثيرة، ولكل مناسبة عصا.

حين يرتدي الجبة والقفطان والعمامة يحمل عصا السبع، سوداء سميكة متلاصقة ذات كعب نحاسي أعلاها معقوف برأس سبع عند انحناء مقبضها.

كنتُ أهاب صاحب العصا ـ ككل أهل الحي ـ عند سماع نقراتها مهابة الوقار والإكبار.

دقاتها على درج السلم نغمات كانت تدفعني إلى التهليل، أي من كانت رفيقة جدي في يمينه، السبع أم الفيل أم الحية أم الصقر، دقات العصيِّ تعني هبة قادمة سواء نقدية أو عينية مما يحمله من أكياس مختارة بعناية من قبل البائع ليسعد الجد ويحافظ على رضائه.

رفض جدي في آخر أيامه أن تصبح إحدى عصيِّه عكازًا فاشترى واحدة من (خشب الحديد) وصارت له عكازًا، بقيت عصيُّ الجد على جمالها ومضى صاحبها مصحوبًا بالرحمات.

لم تهب الوقار والبهاء لأحدٍ من بعده، وكأنها استشعرت تبدل قابضها فبخلت بالسر!

أما أبي، آه من عصي أبي، وما أكثرها!

لكن أهم عصا فيها ـ بعد عصا المؤدب ـ كانت تلك التي يعتز بها جدًّا، سميكة وصلبة ثقيلة نسبيًّا، ليست عصا إنها (شومة).

في يوم اشتد العراك في الشارع بين أخوين كان أحدهما يدب بالنبوت في الشارع وهو يقول:

- "ولي فيها مآرب أخرى"، يعني سيدنا موسى كان يتعارك بعصاه.

أما الآخر كان يولي منه فرارًا حتى صرخ مستنجدًا بأبي، في غفلة كان أبونا في وسط الناس مدفوعًا للاشتباك، فقد لاذ فارغ اليد بظهره مستحلفًا إياه بحق، وحق أن ينجده؛ أدركتُ معنى "اتق شر الحليم إذا غضب"!

لقد تلقى أبي ضربة بالنبوت على ضلعه ثم ضم جناحه على النبوت وأمسك به، علا صوته بالوعيد، ثم انقطع الضجيج وسادت الرهبة المكان، في انتظار ضربات أبي... أما صاحب النبوت فقد أوشك أن يخرَّ ساجدًا، لكنه وقف خاشعًا زائغ البصر، لعله عاصر أبي حين كان يضرب بالنبوت.

أما الآخر فكان يستحلفه قائلًا: "أدبه يا... والنبي خذ لي حقي منه!"، وفعلًا ناول أبي ـ صاحب النبوت ـ عدة لكمات ثم هم بالانصراف لكنه عاد ومد يده وجذب النبوت من قابضه وعاد به.

حفظتُ الواقعة وتعليقات الناس عليها – كما هي ـ وقد كان أهمها "والله خفنا يا حاج أن تضرب بالنبوت وترجع أيام زمان!".

ظل أبي طريح الفراش شهرًا كاملًا لقنني فيه معاني النجدة والنخوة (والفتونة).

فهمتُ الآن فقط سر زمجرات جدي في وجه أبي فيما مضى؛ لعله كان يسرف في التباهي بقواه في الصغر!

آه، لا أستطيع إكمال المسير فأنا الآن أمام العقار رقم 33 والعيادة في العقار رقم 7 لا بدَّ من وقفة للاستراحة فلتكن هنا في محل أخي مشالي.

لقد كان والده صاحب أحب عصا لنا جميعًا ونحن شباب، فوالده مأذون الحي وما أدراك ما تعنيه دقات عصاه!

لم تكن عصا كالمألوف، كانت شمسية مدببة السن إذا طواها فهي للاتكاء، وإذا بسطها فهي ضد وارد السماء في رحلات الصيف والشتاء.

سألتُ مشالي:

– أما زالت مارلين تسكن بجوارك؟

انفرجت أساريرنا عن ابتسامات مفهومة، فمن ينسى عصا مارلين، ومن قبلها مارلين مدرسة اللغة الفرنسية في المرحلة المتوسطة.

استلهمنا معاني الجمال منها، عذوبة الصوت ورخاء النظرة، وقبل هذا كله آيات نحتها من استقامة العود الدقيق المترجرج عند الخصر أما أعلاه فصدر كاعب ناهد نشوان القوافي، يهتز هامسًا ما أحلى همسه! يزيدها فتنة دبيبها على الأرض فهي تتقافز طربًا لارتفاع كعبها عن الأرض.

بحق لقد فاق نحتها كل وصف، وتكامل النحت بصفاء زرقة العين وبياض اللون واكتناز الخد مع أنها كانت بيضاوية الوجه مسدلة الشعر بحمرة متوهجة.

ضحكتُ لأني أيامها كنت أسأل كيف يجتمع الشعر الأحمر مع الحاجب الدقيق المقوس الأسود!

كل شيء فيها آية، كل شيء فيها ثورة، ما أتعس من يقع في يدها مخطئًا!

ضربتها بالعصا قوية كجسدها الثائر، فوق هذا كانت تسدد بالراحة صفعات حريرية سندسية من أصابع شهية، بئس الطلبة، لا أظن، فالعيب على النظام...!

دعاني مشالي لحضور حفل زفاف علا ابنته؛ آه ذكرني ببنت خالتي عفاف التي ما كدت أستعد لحفل زفافنا حتى بدأت "علا" في النحول وسريعًا لنحفظ لها حياتها بُترت ساقها واستعملتْ زوجين من الخشب تتأبطهما بلا

حرج، أيامها كنتُ ساخطًا وضجرًا بعكس علا التي كانت راضية مستبشرة مستعدة للرحيل، وسريعًا ودعنا "علا" ولم تبقِ منها إلا الذكريات وعكازان من الخشب.

مررتُ بيدي أمسح بعض الدمعات الساقطة، واساني مشالي في مصابي وأن الجرَّاح ما كان ينوي الشر وإن كان قد أخطأ في أثناء الجراحة؛ فالسماح من شيم أبناء الأصول:

- وما جدوى اللجوء للقضاء، هب أنك كسبت القضية، هل ستعيد لك قدمك، هل التعويض المادي سيسعدك؟ لا أظن، فأنت أسعد حالًا من كثيرين.

ضرب لي مثالًا بمحاسن زوجة فكري! لقد دهمتها سيارة مسرعة وأطاحت بها إلى الرصيف فأصابها ما أصابها، أصبحت نصف ميتة.

واصلتُ المسير، دخلت العيادة وجدت الجراح في غرفة الطبيب، رفعت العصا لأهوي بها على رأسه لكني سقطت لأني نسيت الفرق بين العصا والعكاز!

الشاطئ

نُشرت في مجلة الإذاعة والتلفزيون 9/ 3/ 2019

جلس مرتخي الصدر، تترقرق الدموع في عينيه، وأوشكت أن تسيل، فخشي أن يراها الناس، فهو الشاب الصلب طليعة الرجال. أمسك الدمع بأن ذكَّر نفسه بأن دموع الرجال ثمينة.

رفع عينيه، فوقعتا على النهر المتهادي الرقراق وتأوه أكثر من مرة، ودوَّى السؤال في أذنه "لِمَ كان الابتلاء فرضًا على بني آدم!"، واستعد لأن ينتحر غرقًا في النهر، وما إن قال ذلك حتى علا صوت الهمس بداخله يشعل نيران الاعتراض على الأقدار ويزين الموت وما فيه من راحة، وجعله أمام أصغر الهموم ضال الفكر، وبدت الهموم وكأنها الجبال.

حاول الشيطان أن يأخذ بزمامه، ويحاول الشاب قهره، ويحاول الآخر أن يحرز أي نصر أمام قوة نفسه الصاعدة، فترك الباب السابق ودخل عليه من باب الحسرة والألم "لقد تغير حال عن حال، لقد ابتُليت مرَّات ومرَّات، ولم كل هذه الاختبارات!" ويذكره بنظرات الناس إليه حين يمر عليهم، "لقد كنتَ من أيامٍ مرجوًّا فيهم!"، فقد الاستقرار والاطمئنان فبدأت نفسه في الانهيار أمام هذه الروايات "إنك تفقد النعمة تلو النعمة!"، هاجت نفسه في خلال هذا الصراع المرير وبدأ يراوغ هذه الأفكار بنظرات متأملة إلى شاطئ

النهر بطوله وكيف تتراقص الأنوار على صفحة النهر، وعى مرمى بصره رأى مركبًا راسيًا، ولكنه يتهدهد مع أمواج النهر، فحاول أن يستلهم مما شاهد ما يدفعه لتجاوز أزمته؛ فباغته شيطان اليأس مرة أخرى فكاد يصرخ بصوت عالٍ متأوهًا مسترحمًا، وخرجت من عينيه قطرة من دمع.

ورفع بصره إلى السماء، وفي الأفق لاح له وجه يعرفه ولكن لا يذكره وهو يقول "كلما كان الليل حالك الظلام كان النهار شديد الوضوح.".

- أتذكُرُ يا بني؟ لا تنسَ، فهكذا حال الدنيا.

- نعم أستاذي، بأمرك سأفعل.

ثم شرع يمحو أثر ما سال على وجنتيه برفق وبدا مستقرَّ النفس ووقف على مهل، زفر بشدة ليُخرِج كل ما في نفسه من ظنون، عاد أدراجه منشرحًا فقد ذهب غمه، ورن في أذنيه صوت أستاذه وهو يعلمه آيات من سورة "يوسف" من زمن بعيد... هل كان يتوقع له أن يكون العزيز!

الحفلة

بين دقات الطبول، وتصفيق الكفوف، وتبسُّم الوجوه وتصنع أخريات لها. كانت هناك ابتسامة غامضة تتمايل مع الناس تصفو لحظة، وتغيب لحظة ابتسامة تموج بمشاعر كثيرة نابعةً من قلب مجروح.

وقفت تنثر الابتسامات ذات اليمين وذات اليسار، وتتشاغل عما يموج بصدرها ولكن هيهات، حتى غافلتها نفسها بناعم الذكريات فحدثتها بأنهم كانوا جميعًا إخوة جمعتهم الجيرة، فلم يفرقهم الجنس قط، ولم تكن هذه النظرة قد زرعت فيهم، فلا مجال للحديث عن شاب وفتاة، يركضان لتحقيق الأحلام المدعومة بالدراسة التي زادت من أُلفتهما.

واليوم يجلس جاري بين الأكاليل فهو العريس - نعم، العروس– الذي تباعد عنا أنا وهي مع الأيام رغم أننا كنا زملاء في الكلية نفسها؛ فصرنا ندق عليه باب بيته لنجدتنا من طلاسم الدراسة وليدفع لنا ما يكفينا لنجتاز عقبات الامتحانات، ولربما دعوناه جبرًا لبيت إحدانا، كيف؟ باستخدام سطوة الأمهات حيث ترسل إليه لتطلبه في خدمة ونكون نحن في الانتظار، لم تكن أمي تخاف حضوره، وزادت بسمات وجهها لأنه كان يلتصق بالأم ولا يفارق جوارها، واتسعت ابتسامتها في هذه اللحظة واسترسلت في الذكريات.

وأخذها الكلام حتى تسلل الغل إلى صدرها فقالت:

- لِمَ؟

لماذا صارت هي العروس؟ لماذا قُدمت علي؟ وبدأت المقارنة، وأخذت تتطلع في صديقتها، وتملِّي عينيها منها، واشتعل الحقد في

قلبها، ووقع نظر أم العروس عليها، فأسرعت إليها، وبدأت بالدعاء لها، وعلى المقابل ردت التهنئة والمباركة ـ ذاهلةً ـ وأشارت أم العروس إلى أمها التي تجلس بجوار العروس، فهي بعكس بنتها، كانت سعيدة بحق وهذا واضح جدًّا، ودعتها أم العروس للجلوس بجوارها، وطال الموقف بين الجذب والتمنع، فتركتها وهي تودعها بابتسامة، وردت عليها بمثلها ولكن مع الفارق، ووقع نظر العريس على الفتاة وتلاقت العيون، فأشارت إليه بالمباركة فهمس في أذن عروسه بحضور جارتها وصديقتها، وكلاهما يكاد يحس بما يدور بخلدها، وفي لحظة تبادل ثلاثتهم النظرات، ولكي تنهي الفتاة الموقف تقدمت إلى جارتها بالمباركة، وكانت تسير نحوها على مهل وتكاد تتجمد أطرافها ولا تحملها أقدامها ويكاد قلبها يعجز عن العمل، وما إن صافحتها العروس وقبلتها حتى أحست برودة بشرتها، لأنها في وادٍ آخر يموج بالحسرة والخصام وقلبها ممزق على حلم الأمس، وحاول العروس شراء ودها بأن لزم الصمت لحظات، حتى بدا لها أنه يرجو أن تدوم الصداقة بينهما، لكنها ما زالت شاردةً مع مراراتها.

وفي لحظة وعت لنفسها فوجدت نفسها تجلس بجوار العروسين، وهي في المقابل على كرسي صغير، فتذكرت وضع الابتسامة على وجهها، وعلى الرغم من هذا كانت أمها تلاحظها، وتشفق عليها لضربات قلبها الخاطئة، وازداد قرع الطبل.

ومع دوي الطبول كان قلب الأم أشد خفقانًا، إنها تبحث عن سبيل لتداوي بنتها، فصارت تدعو لها.

أما العروس فكانت هي الأخرى تفكر كيف تسترد صديقتها من غل المنافسة المزعومة، حتى بدأ ينفض السامر ويقل عدد المدعوين، فجذبت كرسيًّا صغيرًا، وجلست أمام الفتاة على شكل حلقة، فقد وجدت المخرج بالحديث عن ذكريات الطفولة واللعب على السلالم والقفز على الأعتاب.

وعلى عتبات الحوار الثلاثي بدأت تنقشع غشاوة الحسد، وتخمد ضلالات الحقد وتتوارى.

لقد رنت ضحكة الفتاة في القاعة مجلجلةً:

- لا، ما تحكي الباقي، كان يوم والحمد الله أبلة هناء سمحت فيه!

فقد تجاوزت حسراتها ولكي تتأكد العروس مما بدا على ملامحها من صدق قالت:

- رب أخ لي لم تلده أمي!

وأكدت الفتاة قولها بأنْ أعادت الحكمة في صيغتها الصحيحة، وتأكيدًا لصدقها جذبتها، وأجلستها على الكرسي الكبير، ومن هذه اللحظة سعدت أم الفتاة لأن ابنتها تجاوزت ما كانت فيه، وخلسةً برق مصباح كاميرا يسجل هذه اللحظة، ومع انطفاء المصباح برقت روح جديدة من عبق ذكريات الحوار.

النميمة الحلال

أحد مظاهر قدرة الأمهات على إدارة البيوت هي استغلال قدرتهن ومواهبهن في فن النميمة، لا تعجب، فهذا ما تلقاني به زوجتي يوميًّا.

ما إن أعود إلى المنزل مساءً قرب صلاة المغرب وأنتظر للعشاء وألتف أنا وأولادي الأربعة حول المائدة حتى تبدأ هي برصد إرهاصات عن أحداث اليوم وفتح دفتر الحساب عن اليوم السابق.

ما إن تنفض حفلة العشاء، حتى تبدأ الست أميمة في أكل آذاني بدقة متناهية يعجز أي حاسب عن تسجيل كل هذه التفاصيل، والأصعب كيف تلاحق الأحداث بهذه الخفة والدهاء:

- شوف يا سيدي، بنتك الصغيرة آمال كبرت وبدأت توقع الناس في بعضها بس اوعى تفهم غلط، أنا قصدي إن الخطاب كتير وأهاليهم حبايبنا والكل عشمان وفاكر إن البنت من نصيب ابنه سواء إذا كان المستشار محسن زميلك، أو حتى الحاج أسعد جارنا... وكمـ...

- يا حاجّة، جالك كل الكلام ده منين يا أم العيال؟

- عيال! كان زمان، دول دلوقتي صبايا ورجالة وزينة الشباب.

- بس على مهلك، أوعي ضغطك يعلا، لكن والنبي احكي بسرعة أصل رأسي فيها حكايات كتيرة قوي ومشاكل وقضايا وهم ماله آخر!

– بعد الشر عنك من الهم، إنت اترقيت علشان ترحم نفسك من حرق الدم في العدل، تلاقيه وراك وراك!

– مش المعاش كان أحسن وأريح؟

– لأ، برضك الترقية دي وجاهة وقيمة وصيت.

– هي جت عليكي احكي، ما هو لازم التفاصيل.

– شوف ممدوح بن سعد مسلط أمه عليّه وهو بيتكلم مع البنت بالراحة زي عوايده، مراعي حرمة الجيرة والعيش والملح، وزي ما تقول حكاية إنه تاجر والشهادة اللي ما خدهاش كاسرة نفسه شوية وكسفاه من البنت، تاجر إيه يا اخواتي اللي بيختشي ده!

– بس معاه فلوس.

– سبحان الرزاق، العاطي الوهاب، وبعدين كله قسمة ونصيب.

– وبعدين يا حاجّة؟

– مهلك عليه، أنا جايالك في الكلام، طبعًا أنا علقت أم ممدوح بكلام يمشي على الوشين، أما التاني ابن المستشار محسن إكمنه بيدرس للبنت في الكلية، كل شوية يتصل بيها يسأل عن أحوال المذكرة، وأي خدمة يا آمال، حركات صغيرة بس أنا فاهمة الفولة، وإذا كان هو ديك فأنا فاقسة البيضة، وينادي كمان على البنت علشان تطلع له المكتب.

- يا حاجّة، فهمت إن الشباب في الكلية بيجيبوا سيرة بنتك بكرا أكلم محسن أخليه يطلع ودان ابنه في إيده.

- لأ مش ده الغرض، صبرك عليَّ.

- أنا صابر، تلاتين سنة صابر (يا رب قويني).

شهقت زوجته في وجهه باسطة أصابع كفها في وجهه صائحة.

- الله أكبر، الله أكبر، حوش اللي وراك.

ابتسم الزوج، ثم رجاها أن تكمل بسرعة:

- اللهم صلِّ على سيدنا محمد (ص) كنا وصلنا لحد إيه يا أبو صلاح، آه كده آمال رايدة الواد ممدوح بس عين في الجنة وعين في النار، خايفة إخواتها يعيبوا عليه أو إنت تكسر خاطره، الحمد لله أنا مستريحة إن البنت بتحكي لي كل حاجة ببساطة وبدون حرج أو حتى ترمش.

- إيناس!

- بتنادي على إيناس ليه؟ سيبها في حالها هي كمان.

- السهر هيطول وأنا راسي لفت، تعملي واحد قهوة.

- قهوة بعد صلاة العشا، لا يمكن أبدًا!

- خلاص نخليها قهوة باللبن يا حاجة، أوامرك...

كاظمًا غيظه بدلال:

- بس تكون خفيفة.

انصرفت إيناس تفكر في هذه الحالة والعلاقة القوية بين القاضي -والدها- وزوجته التي أصبحت شبه أمية بعدما ركنت شهادة البكالوريا جانبًا.

استمر السؤال يدور في رأسها عن سر هذه السهرات والحوارات والمحاولات، كان السؤال حبيس عينيها ورهن أحاسيسها ولكنها تدرك بغريزة وضعت فيها ونمتها أم العيال أن أهم غرض لهذه السهرات هو استمرار حبل الود فتيًا عفيًا.

انصرفت إيناس وتركت الحوار ليأخذ مساره كما كان.

الأب:

- على كل حال ما فيش مشكلة، البنت تحت جناحِك وسرها معاكي وربنا يقدم اللي فيه الخير.

الأم:

- خلاص أنا هلمح لأمه وهي إن شاء الله هتفهم.

- رجالة آخر زمن؛ جبان وخايف يتقدم وهو زي الجمل، بلاش نقول التانية.

- ما هو برضه اللي خاف سلم، أحسن تجرحه أو تبعتره!

- يعني يخلي أمه تنجرح بداله، وإذا الواد اتبعتر يعني هايلاقي ألف من يلمه!

- مهما كان، هي ستر وغطا عليه، وهي لما تفهمه الرفض أحسن ما يتجرح كده على طول.

- الرجولة مغامرة، وفوق كده تاجر يعني حياته في المغامرة -آخر زمن- تصبحي على خير!

- اقعد شوية لسه لما أكمل لك كلامي.

- عن إيه تاني؟

- إيناس.

- مش الحدوتة خلصت ورجعنا لخطيبها الشبكة وكسرنا وراه مِيت زير!

- لا يا سيدي، مش كده واحدة في الشغل معاها غيرانة منها وواخدة بالها جدًّا منها.

- من تحت رأس إيه إن...

- أصل جوزها بيشتغل في نفس المكتب مع إيناس يعني مهندس لكن الست الهانم مراته في الحسابات.

- يا حاجّة... عاوز أنام عندي شغل واحكي بالمختصر المفيد!

- شغل إيه بكرة الجمعة!

- كان زمان قبل ما أطاوعك وأقبل الترقية.

- المختصر الست دي قايم في دماغها إن إيناس بتشاغل جوزها وسابت خطيبها علشان الغرض من الخطوبة هو إن الراجل يغير ويهتم بها.

متأنيًا مستوضحًا:

– الست مجنونة، واللا بتتكلم بسبب؟ البنت ممكن تكون بتفكر.

– لأ، هي دي تفوتني يا سي الحاج، اتصلت بنشوى فمهما كان هي مننا وعلينا ومش ها تخبي عني حاجة خالص.

– هي بتشتغل في نفس الهيئة؟

– صح النوم من قبل بنتك، المهم نشوى شكرت في الحاج فايز وإنه أكبر منهم بـ (11) سنة وعمره ما كلم حد بره الشغل وحدود العمل وظروف المكان بتجبرنا نتحرك ساعات رجالة مع ستات وفوق كده الحاج فايز شيخ أزهري، ومين في الدنيا ما بتحلمش تتجوز الحاج فايز بس الراجل بخته قليل، ربك والحق وقفت في زوري واتكيت عليها وبعد شويه هزار رجعت تقول لي:

الحاج فايز الراجل الفاهم الواعي الأخ العاقل الواضح المستقيم ذو الدين والطبع الحازم أخلاقًا ودينًا وعملًا (حمش).

أما مدام عصمت –لا سمح الله ـ فصديقاتها وزميلاتها أطلقن عليها (أم 3 عيون) آه، نار على زيت حار، فلفل على شطة، ترفض الترقي لتظل بالهيئة نفسها، طاف يمين الطلاق في سماء حياتها ووقع مرة فعلًا لولا ضعف فايز – ناحية الأولاد– فردها، كل كام سنة أو كل سنة لها حدوتة وحكاية في المصلحة، الراجل لو يقدر يتنقل أو يسيب الشغل؛ كان طفش من زمان.

مرة ارتخى الحوار في المكتب عندها مع أحد زملاء الحاج الكبار وأمام الحاج فايز نفسه: "يا خرابي، ولعت نار"، هبت تطالب فايز بزجره، على الرغم من أن كل السيدات لم يثرن، ولم يتأثرن للنكات، وآه لو مرت بمكتبه وشاهدت جوًّا من المرح البريء، نصيبه، الراجل طبعه كده، دمه خفيف لازم يشتغل، والكل بيبتسم، حتى لو كان الصمت مطبقًا على المكان وتقوم القيامة، لو طلبت منه خدمة في مجال العمل، وتأخر عليها، أو فكر في صحة ما تطلب، المهندس فايز له الجنة من غير حساب، رصيدها في بنك الجمال محدود، وهذا هو سر انقلابها على إيناس عقب فسخ خطوبتها، وخطيب إيناس بيلعب بها لعل وعسى وبيساعدها على كده، فاكر إن إيناس ممكن تفكر فيه تاني، مش قادر يفهم، إن حكم سيادة القاضي لا يرد أبدًا، حتى إذا كانت البنت في نفسها أي معارضة للقرار، ثم كررت:

- (أصل مراته ست غيارة جدًا، غيرة عميا، تِكسف في ذوقها وهندامها ومعاملاتها، ربنا يكون في عون القسم عندهم! مخلياهم يشوفوا الويل، لكن البنت بتغلي ومش عارفة تصد أو ترد أو تأخد حقها وطالع عليها بدموع كل يوم بعد الشغل).

ارتخى الأب على السرير وهو يحمد الله قائلًا:

- يعني كلام بالزور، تستحمل، وربنا إن شاء الله يعدلها، إذا تعرضت لها مباشرة لنا كلام تاني.

واتخذ وضع النوم، فلكزته زوجته قائلة:

- وحكاية صلاح؟

- قديمة، مش هي برضه عن الديك الرومي والبنت رجاء على سطح البيت المجاور اللي في ظهر البيت عندنا، لو فيه حاجة جديدة

والنبي خليها للصبح والنهار له عنين، والصباح رباح، أنا تعبت، تصبحي على خير يا أم العيال.

هدأ بال أم العيال، فلقد ألقت ما في قلبها من هموم، وأخلت سبيلها، واطمأن صدرها لعدل القاضي المدبر.

أما القاضي فقد غط سريعًا في النوم، رخيَّ الأعصاب قريرَ العين، فالأمن الاجتماعي داخل جدران الأسرة يقظ جدًّا، فأم العيال ما زالت ساهرة.

روضة النسيان

بعد سنوات من الغربة والعمل المكثف والمتقطع أحيانا قررتُ التنازل عن كل ما أملك لزوجتي!

باختياري وبلا إلحاح منها ربما سبب هذا لها الكثير من الضيق والارتباك، ولكن هذا هو الحل الوحيد لما صرنا إليه.

في مكتب مدير البنك - صديقي أسامة العربي- كنتُ أنهي كل الإجراءات اللازمة لأتجرد من المال وأتخلى عن مسؤولياته.

طلب أحدهم الإذن بالدخول وسمح له المدير وتلفت أسامة نحوي وقال:

- مفاجأة غير متوقعة يا صديقي!

- خير يا أستاذ أسامة؟

دخلتْ علينا سيدة وقور الزي والطلعة وارتبكت لوجود عملاء مع المدير مع اقترابها من المكتب وضَحت لي صورتها في الزي المدرسي البني فقلتُ:

ـ أهلا آمال، فرصة سعيدة!

ارتبكت الضيفة من جرأتي بإظهار سروري لمقابلتها، وانزعجت زوجتي من كلامي وقالت:

ـ لا مؤاخذة، من علامات المرض، تتراقص وتتداخل الأشخاص في نظره!

قلتُ:

ـ دي آمال.

أشارتْ زوجتى نحوي وقالت:

ـ يا دكتور، آمال في السيارة بالخارج.

ـ أنا لسه ما خرفتش، الأستاذة آمال الشواف طالبة بمدرسة الروضة الابتدائية المشتركة فصل 6/ 1 صح يا أسامة؟

علق مدير البنك:

ـ تمام ياه، فاكر المدرسة الابتدائي بالتفصيل طب إيه حكاية (الزهايمر) ده!

قالت آمال بود وبراءة الزمن الجميل بعد أن جلست في مقابلتي بجوار زوجتي:

ـ مش معقول، نديم، زهايمر لا يمكن!

مدير البنك ـ إحنا أخدنا الابتدائية من كام وأربعين سنة يا نديم!

ـ لكن آمال ما شاء الله كانت صاروخ الحساب وكل حاجة بصراحة!

ـ خذ بالك زوجتك معاك! (المدير يعلق).

الزوجة:

ـ يعني بنتي اسمها آمال على اسمك!

ونظرت إليَّ زوجتي بتألم وشفقة وحسرة...!

ووجدتها تقول بلا سبب ـ وأنا ما كنت أصدق الطبيب عندما قال لي إن نديم سيذكر الماضي البعيد جيدًا وعلينا أن نبعثه فيه.

ـ لا تخافي، نديم شجاع وقوي ويواجه وقلبه جامد ومش المرض اللي يهزمه.

بهذا تأكدتُ من أنني بمجرد أن أتمم نقل أملاكي لزوجتي ستلقي بي في الشارع منك لله يا آمال لازم حبة كلام الحنينة دول... كنتُ أقول لنفسي .

والطبيب يرجو زوجتي أن تشاركني الذكريات كيف وأنا حياتي كانت بلاد تشيل وبلاد تحط وناس من السند والهند وأفريقيا والله بلد اسمه...

ووجدتُ زوجتي تسأل آمال:

ـ حضرتك تعرفي كتير عن نديم ولك ذكريات معاه على كده؟

رد أسامة متعجلًا:

ـ المهندس شريف توأم آمال كان زميلًا لنا لهذا ظلت آمال في صحبتنا لم تفترق عنا ولأن أمها كانت صاحبة فضل علينا، فاكر يا نديم؟

ـ طبعا أبلة زبيدة ومجهودات أبلة زبيدة.

ـ أصل ماما كانت بتعز نديم من أول ما درسته في الصف الخامس، لكن يا حرام، الكشكول (اسم نديم في المدرسة وبين المدرسين) يصاب بفقدان للذاكرة... طب مين ها يراجع التاريخ للأولاد الصغار الجدد يا نديم!

وهنا تذكرتُ شيئًا فقلتُ:

ـ فاكره صندوق الصابون يا آمال؟

فضج مدير البنك ضاحكًا وقال:

ـ ياه لساك فاكر، انت قلبك اسود يا نديم!

ارتسمت تعبيرات الدهشة والاستنكار على وجه زوجتي حتى قالت آمال:

ـ في مسابقة لأوائل الطلبة بالابتدائي كان نصيبنا سؤال في الحجـ...

دخلت شابة غاضبة المكتب وهي منقطعة الأنفاس:

ـ خلاص الونش ها يشد العربة من أمام البنك.

سألتُ من هذه الجريئة؟

زوجتي قالت لها يا بنتي لحظة وها ننزل.

أدركتُ أنها آمال بنتي، ولمزتني زوجتي قائلةً:

– صدق الطبيب ده انت فاكر آمال الكبيرة وناسي الصغيرة صبرني يا رب!

ونظرت إلى آمال وقلت لها:

- مش أنا السبب في خسارة الكاس منه لله أسامة يونس غير الإجابة.

مدام آمال:

- مع السلامة!

ضحك مدير البنك أسامة يونس العربي وقام يودع الآنسة آمال زميلتنا، وتلفتت زوجتي وهي تتأسف وتتصعب على حال آمال الكبرى وحال أبو آمال الصغرى، لكن آمال الكبرى قالت:

- أنا منتظراك في الروضة، وهنلعب سوا.

زوار الأحلام

قاربتْ الأربعين من عمرها، وترعى خمسًا من الشباب المتقاربة أعمارهم والمتفاوتة طباعهم، ما أصعب معاناة هذه الأم!

عقب الغداء يسود الخمول جو المنزل؛ تنتهز الفرصة فتأوي إلى كهفها المعهود! أريكة صغيرة بين نافذتين صغيرتين وتعلوها نافذة كبيرة تتراخى عليها لتنال حظًا من الراحة المشبَّعة بنسمات الصيف الرطبة عصرًا، خالية البال فقد أدت واجبات يومها فتستمتع باسترخاء ممزوج بالرضا يداعبها النعاس فتغفو آمنة مطمئنة.

ـ أمي، أمي، انتبهي، لقد علا صوتك... أكنتِ تحلمين!

البنت الكبرى ربتت على زند أمها:

ـ اللهم اجعله خيرًا!

الأم بعد أن انتبهت إلى نفسها:

ـ خيرًا إن شاء الله، ماذا رأيتِ يا أمي!

ـ رأيت شيخًا مهيبًا، عليه تجلٍّ من الله – سبحانه وتعالى!– وجهه مستدير ومنير كالبدر في يوم تمامه، مبتسم المُحيا، وكلما اقترب مني زادت ابتسامته، أحسستُ بشعور غريب مع اقترابه لا أعرف كنهه ولكني لم أكن خائفة منه.

وكنتُ أتأمل وجهه وكم هو بشوش، وعندما اقترب أكثر مد يده وفرد كفَّه وأشار إلي برأسه لأنْ أمد يدي وآخذ ما في كفه، كانت زمردة خضراء وسط (إيه... صَدَفة) والصدفة فيها حاجات (زي الشوك) يمكن ويمكن تكون إبر المهم هي حاجة، حاجة لها سن يُغْز ويؤلم إن لم تتفاده وتتحرك وتتلوَ كمان - كأنها اسم الله الحفيظ - وكف الراجل ذاته به آثار جروح من أشواك هذه الصَّدَفة! ربك والحق أنا انقبض قلبي من شكل جروح كفه يمكن! وكنتُ أريد أن أتركه وأترك الجوهرة العجيبة

النادرة وأجري، لكني (ماعرفتش) كنت زي الجبل في مكاني ومترددة؛ سمعت صوت أبي الشيخ فتح الله ـ جدك- يهتف بصوت واضح رنان:

ـ"خذيها يا رقية، لا تخافي فدرتك من نوع فريد، ما عاد منها في الدنيا يا ابنتي، مدي يدك وإياكِ أن تخافي فكلما فتحتِ للخوف بابًا نمى الشوك وخرج منه غول ليسرق منك جمال الجوهرة، حافظي عليها وصونيها، إياكِ والخوف واحذري الطمع وتحملي ولا تجزعي، حينها تتلألأ جوهرتك ويشع بريقها لأنه بريق مختلف من در شحت كنوزه فما إن ظهر إلا وسلب الألباب لندرته.".

ومددتُ يدي لآخذ الجوهرة من وسط الشوك الغريب وفجأةً رأيت الأشواك تتراقص كالشياطين -أعوذ بالله من الشيطان الرجيم!- وأخذت تتفل في طيات ملابسها، ثم عادت فأكملت:

- وأخذتها لكن في شوكة صغيرة لصقت بالجوهرة وأنا لم أهتم وحاول الحارس - حامل الجوهرة- أن ينزعها لكن الشوك كان كتير ولم يلحق أن يشد هذه الشوكة.

ظل هذا الحلم يتردد على مدار أيام وأيام، وظلت البنت تذكره لأمها كلما دفعت إليها الوليد الجديد لتتكفل به فقد ملت الأم وسئمت ونسيت أمور رعاية الصغار، فهي متفرغة لإدارة أماني الشباب، تحلم بثمار أشجارها العالية، أما شؤون الغرس والزرع والملاحظة فقد أهملتها بحكم السنين!

عيون زائغة ونظرات حيّرى تبحث عن سلوى أو ونيس في لهو طيب بريء، يجذب اهتمامه أسئلة كثيرة ساذج معظمها، غريب بعضها، فذ قليلها، يطرق رأسه؛ فلمن يبوح؛ لا يجد من يجيب ولا أحد يحاوره، وحيد رغم كثرة الإخوة في البيت يشعر بمرارة الانطواء، تطرق الأحزان قلبه، تدمع عيناه تشق الدموع في صدره جرحًا ينبت أشواكًا - يحاول نزعها بالفطرة- يزيلها إلا واحدة، يبحث عمن يدعمه، ينظر حوله يستجدي إخوته، أنا منكم، فلم البعد!

يسعى إلى جذب الانتباه؛ يبحث عن المرح بينهم ومعهم، تخيب محاولاته، يغلق على نفسه، ثم وجد طريقًا للفرح أعد الخيمة، ومستلزمات الرحلة، ليقيم معسكرًا كالكشافة - كما يفعل إخوته- لكن بعيدًا عنهم، وليجدُّوا في البحث عنه، وضع البطارية جانبًا، وأهمل الفانوس خوفًا من النار لأنه في السندرة:

- هنا الورق والقماش كتير، لو أشعلت الفانوس يمكن تقوم حريقة لا قدر الله - كما يقول بابا ـ!

هكذا حدث نفسه في أول أيام المعسكر.

كاد يسأم الوحدة - لكنه شبه متمرس عليها- بحث في معسكره عما يتسلَّى به، بعد أن شرب ماء الزمزمية وارتاح من عناء السفر (لقد كان يسترجع صعوبات رحلته) وجد كومة الكتب القديمة؛ بعضها مصور وبعضها شبه مصور، ضوء الطاقة الزجاجية المطل على الفناء الداخلي أصبح شديد الخفوت، لا بدَّ أن المغرب قد اقترب، ألم يشعروا بغيبتي! كادت الدموع أن تفر هاربةً من عينيه!

يأخذه الوقت، ثم نام - لم يشعر بالارتباك عندما جد الأب وإخوته في البحث عنه - فقد اعتاد السفر في الأدغال وفي الصحاري ليقيم معسكره في قلب السندرة في ظلال الكتب القديمة التي صارت كنزه الثمين!

ينسى جرح قلبه الدامي مع رفقاء السندرة، يجد عبر الظلام من يحدثه ويسرِّي عنه، يتكلم معه بحذر، لكنه صوت حانٍ يهمس له بلطف، يحس قربه "هو اللعب معاك كله كلام عاوز ألعب بجد"

تكاد تقفز الدموع ويحاول منعها فتهزمه وتفر تجري ولا يعرف سبيلًا لمقاومتها إلا بالنوم، ثم قد أخذه النوم ليطوف ويرى من العجائب ما يشرح صدره المجروح؛ رأى أنه ملك وزعيم وله أتباع ومحبون وأنه...

لكنه سمع من يهمس له "انظر هناك فوق... أكثر... أكثر... هناك هذا مكانك، إنه مكان لا يصل إليه أي أمير أو زعيم" اندهش معجبًا

واستيقظ؛ فرأى من كان معه في الحلم أمامه؛ تشاغل عنه رغم خوفه وأخذ يحدث نفسه عن الحلم واستمر يحدث نفسه عن الحلم ويتساءل عمن يحدثه في الحلم وبين صفحات الكتب!

فيسمع صوتًا ولا يرى مصدره يقول له:

- "نحن، سكان الزمردة."!

الطفل يرد مندهشًا:

- "أي زمردة!"!

فلم يهتم الصوت بسؤال الطفل الساذج، وأكمل الصوت قائلًا:

- نحن العهد والوعد والأمل الممدود.

- أي وعد، لا أفهم، في كل الأوقات أنا لا أفهم، حتى معكم!

لم يتمكن من التعبير عما يلاقيه من إهمال، هل صرتم مثلهم، هم يبعدونني عن دنياهم لأني لا أفهمها فهي صعبة!

أمي تخاف على عقلي لأني أحدثكم؛ تظن أنني أحدث نفسي لا تعرف أنكم معي دومًا يا أصحابي، فهي تشتكي لإخوتي – بعيدًا عني– وتظن أنني لا أفهم، أحيانًا تلومهم لأنهم لا يشركونني في دنياهم، الآن يحاولون، ليرضوا أمي لا من أجلي أنا، إنهم مختلفون عنكم يا أصحابي يا أصحاب السندرة ما أحلاكم!

اعتاد الترحال والإقامة في الخيام أو الكهوف ودائمًا يختلي بالكتب، يقرأ، يحاكي أصحابه، يطير ويقبض على نجوم السماء ويحلم بالانتصارات والأمجاد ونجاحات دنياه الآتية، أصحابه يدعمون أحلامه، يحدث أهله بهذا، يتشكك معظمهم في عقله ويندهشون بحيرة وتخوف، ويتظاهر بعدم الفهم، لكن الأب الرشيد العجوز يلملم شتاته ويقوي أحلامه ويهدهده داعمًا آماله، لكن الأم المتوجسة تنقل فراشه إلى حجرتها.

"ماما تتصنت عليَّ – محدثًا نفسه– نفسها تعرف أنا بكلم مين، وبفكر في إيه، ولا حاجة، كل ما أتمناه أن أنام بالسندرة،لأظل مع أصحابي هناك".

ونامت الأم تاركة إياه مسترسلًا في الكلام، وفي أيام أُخر ينظر حوله يتلذذ بحنو أبيه فينقبض صدره، وتلمع الدموع في عينيه لفراقه؛ قد صار يعرف الخوف!

فتتراقص حوله الأشباح، تنبتُ شوكه، يبتعد الأصحاب وتتلاعب به المخاوف، كلما زاد معرفةً بما حوله امتد الجرح في صدره، مانحًا الفرصة للأشواك لتثبت جذورها وتشق لها منبتًا تأوي إليه الأشباح، إنه يتمزق.

ينزوي برأسه في ركن الفراش والحائط شارعًا في البكاء كاتمًا الأنين، الأم تنادي عليه، ولا جواب:

- آه، يا آخر صبري، العياط ده كله ليه، يا أبو قلب أخضر، إيه بس اللي واجعك؟

تعب الصغير من البكاء، تألم من وخز الأشواك، فغرق في بحر النوم؛ هربًا، يزداد وخز الأشواك، يبحث عن أصدقاء السندرة، ينادي عليهم ويستغيث بهم، رغم أنه في أحضان أمه:

- الشوكة وضح صوت غولها، لا يقوى على المقاومة لا يقوى، لا يقوى يفر منهم، يسقط من الشرفة، يسقط ويسقط... يحاول الصراخ... لا يخرج صوته... يزأر بكل عزمه، يخرج خافتًا، لا مجيب... بابا، بابا الحقني...!

يطول زمن السقوط فهو معلق بين السماء والأرض ولا مجيب، يظلُّ يهوي صارخًا بلا صوت...

يفزع من نومه تضمه أمه بلهفة وشفقة:

- اسم الله عليك يا حبيبي، مالك؟

يحكي لها ما شاهده في الحلم؛ فتردد آيات من القرآن وتضمه بقوة فيعود الولد إلى النوم.

تمر الأيام والحلم يتكرر، أشباح الشوك تكبر وتظل تردد الهاجس نفسه، يصرخ ويصرخ ويجري هاربًا لا يجد من ينجده، يا صديق السندرة يا...

يسمع صوته خافتًا جدًّا فيقول:

ـ والنبي حوشهم عني!

– لا تصرخ، لا تبدد جهدك، اهدأ، اثبت.

– هذا الصوت أعرفه، أسعفني أرجوك!

– لا منجد لك إلا نفسك؛ فكن مثلي؛ افتح عينيك لتبصر!

ـ أنت صديقي ساكن السندرة لكن كيف تطير بلا أجنحة وبلا ريش؟

– لا تتعجب يمكنك الطيران مثلي لو ملأ الثبات قلبك، قلب آمن جسور سيفتك بالأشواك والأشباح.

– جسور بطل الحكايات التي كنا نقرؤها معًا في السندرة، كان يفتك بالأعداء.

– وأنت ستواجه الأعداء: الظن والشك والشوك من قلبك.

– لا أفهم!

– رواء الشوك ظنون السوء وشمسه اليأس وخيبة الرجاء فلا تنشغل بها فيقل عزمك كف عن هذا، إن لم تفعل لخرج الغول من الشوك وزاد ألمك

وضاع ذكرك؛ فأنت صاحب عزم، فامض حيث رجوت ولا تتألم من أشواك المسير فهي من غُرم الطريق، غير أشواك الشياطين، أشواك المسير، أشواك المسير كن على يقين...

اختفى الصوت، فصاح الصبي:

- لا أفهم، كلما تكلموا قالوا ما لا أفهمه!

- ستفهم، لكن احفظ عني الآن وقل معي: "الإرادة بين العقل والهوى يسيرها القدر، اللطف في الغيب استتر!".

اللطيف حصنٌ، أمن به منْ التحقْ، ومعه ستحلق عاليا في السماء!

- عرفتك، عرفتك أنت جدي، حقًا يا جدي أنا سأطير يومًا ما مثلك، ما أجمل هذا المكان فلأسترح الآن. المكان عال، إنه الجنة ...

ــ لا، ليس هذا مقامك استمر في الصعود، هناك أجمل، هناك أعلى، هناك أكثر نورًا وبريقًا، إياك والنظر إلى أسفل أو إلى الوراء أو حولك فينالك ما نال رفعت البدوي.

- رفعت البدوي، من رفعت، ومالي ومال رفعت؟

- احفظ عني، وستعرف من رفعت، اتعظ منه، كن نفسك، لا تولي الفرار، وتحمل أشواك المسير، غول الأشواك من رأسك، واحذر أن يتمكنوا منك فإن أخذوا زمامك فقدت مكانك وتحطم جناحك وتهاويت من مكانك.

– جدي، أشباح الأشواك هناك، انظر، إنهم يتلاعبون بجاري الشاب الفذ الأول السبَّاق مضرب الأمثال قدوتي كم حلمت أن أكون مثله، أنجده يا جدي؛ كم أنت طيب يا جدي!

– لا يحق لي نجدته.

– يا جدي لقد كان يحلق عاليًا فوق كل الجنات.

– كان عليه الاختيار، الآن هو في الاختبار، هو بين عقل وهوى، ولن نتدخل حتى حين.

– جدي، قاربتُ القمة الثانية، ولاحت لي الثالثة، جدي لا أفهم كثيرًا ما تقول، جدي جناحاي يذبلان، الأشباح تنتش ريشي!

أفاق على رشات الماء المتوالية على وجهه من يدي أمه، كانت تدعو له ببعض آيات القرآن الكريم، ضمته إلى صدرها وناما على الفراش الكبير مستعيذة من الشيطان الرجيم ولكنها تحس بارتعاشات جسد الصغير.

– مالك يا ابني، اسم الله عليك، آه يا آخر صبري!

– لا شيء، كنت أتدحرج على السلالم.

كاتمًا ما هب في نفسه من أسئلة وظنون. شتت حبات النوم من عينيه، لا يجد إلا أن يدعو الله

"يا رب أكبر بسرعة!".

يرن في أذنه الصوت نفسه، عقل وهوى، إرادة وقدر، وإن نبت الشوك تجمعت الأشباح وشلوا الجناح.

نسي الصبي أحلامه وفزاعاته وظل وفيًّا لصديق السندرة لعدة سنوات:

- خلصت الواجب وجيت لك جري، آه يا جدو أنا سامعك بس أنت فين!

- اسأل لحد ما تروي أرض اللهفة والحيرة وساعتها شمسك تشرق من بحر المعرفة.

أحس الأب ببعض القلق على الصغير فبدأ يسليه ويروح عنه ويكلمه ويصطحبه إلى المقهى وفي المجلس بين الكبار رن اسم رفعت البدوي في أذنه:

- جدي، هذا رفعت، سمع تفاصيل مشكلة رفعت واستقرت على جدران عقله، كيف سأصبح مثله؟

رفعت يعزف جيِّدًا على الناي، حتى إن المايسترو الشهير طلبه ليعمل معه، طب أنا كرفعت كيف!

عاد الرنين، رفعت محاصر بمثلث الصراع، إياك أن تدخله.

- أنا كرفعت في ماذا؟

- أنت بلا موسيقى، معك حمل أثقل، فاحذر!

ازدادت حيرة الفتى، الآن بدأ يتذكر، لقد ضعف القلب ونبت الشوك فعجز الجناح، يحاول قلع الشوك، رويدًا رويدًا، يضيق المثلث، أشباح الشوك تتكاثر من كل واد يأتون، اشتد صراعهم معه، يبحث عن مرتكز في سعيه ليقف عليه لكنه يهوي ويسمع همس الجد فيبكي خيفة ويكرر المحاولة ويذكره الجد بالوعد فيبدأ بالسعي من جديد.

يدعو ويدعو والصراع دائر والصبر مر، يحاول اقتلاع كل الأشواك، فتحبطه الأشباح وتكبله ولكنه يلزم الصبر والاجتهاد ويكابد الهوى وعقله مشتت ونفسه ضائعة:

- جدي، يا صديقي العزيز، يا صاحب السؤال، يا ساكن السندرة، أود أن تصحبني في سفري، لقد تجاوزت أشواك المسير وهزمت أشباح الشوك وقهرت غولها!

الأم: يا لهوي ياني، اسم الله على عقلك يا ابني، إنت رجعت تكلم نفسك تاني، إحنا ما صدقنا إن ربنا أخذ بإيديك، وخلصت وخدت الشهادة وربنا لطف بيك ونصرك بفرحة!

دخلت الأخت وهي تحمل الحقيبة قائلة:

- وأي فرحة، هي اسمها إيه الجايزة اللي انت رايح تستلمها يا فنان؟

حمل الحقيبة مسترجعًا أيامه في السندرة، فسمع أخته تقول:

- يا، إياك تسكن في خيمة!

- كان زمان يا أختي!

صوت يهمس له ضاحكًا "ها قد ثبت عقلك وفاز هواك وتحققت الأحلام، فلم تعد أحلامًا!".

تتذكر الأخت الحلم القديم وتقول لأمها باسمةً

- الزمردة يا ماما اللي جدي قال لك خذي بالك منها دي نوع نادر، تطلع إيه؟

تتبسم الأم دامعةً وهي تودع الابن متذكرة لهفتها على ضياع أملها في الصغير وصولًا لنور اليقين قاهرًا الخوف وأشواكه!

سوسن وبيت الحمد

نشرت في أخبار الأدب سبتمبر 2017

ذاك الرجل الصعب – طيب القلب– الحنون الحاضن لأسرته، إنه أبي، لا يلين بالرفض أو القبول، عارك الحياة فشاب شعره وسقط سنه، لكن لم يفتر عزمه أو يبرد حلمه.

"يا ابني أبوك يفهم الفولة قبل حتى ما تترمي في أرضها، إنت فكرك إيه؟ الشعر الأبيض ده متكلف بالغالي قوي".

هكذا تكون تعليقاته عندما يتماكر عليه أحد الأبناء أو نطلب منه بنعومة ما لا يتوافق مع هواه.

أبي أحد المشاهير في مجال صنعته، ارتقى بها سلَّم الحياة، سكن منطقة الستر الدافئ حامدًا ربه على ما وهب.

أبي دومًا يُسلِم الزمام للقدر، لا يندم على ما فات، لكنه حاسبٌ لموضع قدمه، فإذا ما تجاوز الفكر لا يهاب المغامرة والمخاطرة.

أبي أحلامه بسيطة ومنطقية ـ كأي أب ـ إلا فيما يخص تعليم الأولاد، نزل الحلم على رأسي كالتاج الثمين، أثقل رأسي، أوجع أعصابي.

أبي يراني قادرًا على تحقيق حلم الجامعة، بخاصة دراسة الهندسة، كيف لي أن أعدّله عن رأيه؟ أبي لا مدخل له إلا أمه (ستي صفية):

- الواد طالع لأبوه راسه ناشفة، وربنا وهبه في إيده وراسه كلها شغل وصنعة مش غاوي علام، ارحمه يا واد يا فاروق!

هكذا نزل أبي على رجاء أمه التي لم تتدخل إلا عندما أحسَّت مدى خوفي على غضب أبي أو كسر خاطره.

دعتْ جدَّتي صفية لأبي بأن تبقى ذرية فاروق يدًا واحدة (قلوبنا على بعض)، وفارقت جدتي البيت وهي في تمام الرضا عن أبي.

دخلتُ غمار العمل مع والدي، أحبني - رضي عن جهدي- ينظر إليَّ وإلى كدِّي كأنه يراجع الأيام في شبابي، باسمًا في الغالب، مؤنبًا:

- كان عليك من ده بإيه يا ابني!

يقولها بلكنة من الألم!

أبي له من الأسرار الخفيَّة ما لا يعلمه إلا ربه، تعلمتها منه، حب الصدقة الجارية، لا يُرَدُّ سائل على بابه.

أبي يسمع عن مشروع الحاج جلال حمد الله، سجَّل الفيلا التي باسمه كدار لرعاية اليتيمات من المهد وحتى الزفاف، كان يحاول أن يصرف عن زوجته همَّها ويقرب منها حبها.

أبي يشارك الحاج جلال بقدر ما يستطيع بكل شكل على مدار عشر سنوات أنفقها في العمل مع أبي:

- دلوقتي الحاج جلال طالب منا مقاولة ترميم للبيت عنده، الشغلة دي من نصيبك، يللا ارحل عن سمايا!

أبي يَهَب لي فرصة لأستقل بالعمل عنه وأرتقي من صانع إلى معلم. لم أرفض طلبه ودخلتُ العمل لأول مرة نصف صانع، نصف معلم، أرى أخطاء الزملاء فأتدخل بيدي، أتذكر كيف كان يتصرف أبي، أرتد إلى الخلف خطوة وأشرح الباقي نظريًّا تارة ساخرًا، لا، لا، أنا لست كالمعلم فاروق أبي، ليس هذا مقامي أو ردائي.

أبي لم يتركني، عاد ليرى ما تم في ساعة الراحة، خصوصًا أنه المموِّل. أقام صاحب الدار مائدة للغداء في الحديقة، بالتأكيد احتفالًا بقدوم أبي.

أبي لاحظ شرودي - حقًّا هذا- لقد سلبتْ الفتاة واضعة الأواني عيني وأشعلتْ النار في صدري. ناداها جلال باسمها "سوسن"، ما أجمل الاسم! وصاحبة الاسم أشدَّ من الزهر جمالًا، لكن لكل جمال

نقيصة. تابعت العمل في الدار أترقَّب ظهورها، أتشمَّم رائحتها. سألت عنها مباشرة! تبسم الحاج جلال وتألقت عيناه متمنيًا وداعيًا وراجيًا.

أجلسها الحاج جلال ذات مرة معنا على مائدة الغداء وأخذ يحاورها أمامي.

أليس الكمال لله وحده!

سألني الحاج جلال:

- هل استطعتُ أن أربي؟

- نِعم الأدب يا حاج جلال.

- هي كبناتي، في الأدب والمكانة.

نعم، هي كأحسن البنات، إذا علا صوتي مجادلًا أعواني أو سابًّا استغفرَتْ، وإذا صحتُ بهم لاعنًا تشهدتْ، لقد سلبتني أمري.

أبي حارس التقاليد راعي الحرمات طَمُوح الفكر، أيرضى بهذا نسبًا! ورحم الله جدتي، تذكرت دعوتها "يا رب ما تفرَّق بين فاروق وأولاده...!".

أين أنت يا جدتي، من يجرؤ على فتح باب الحوار معه! لا، لن أعصي أوامره أو أفر من طاعته، سأطلب، سأرجو، سأتمسك.

أبي عندما يثور فهو كالبركان بل أشد، أخرج من قلبه كل هفواتي السابقة دفعة واحدة.

- صحيح يا واد، إياك صدقت إنك معلم وتقدر تساوي الروس ببعضها.

أبي هدأ وجلس يفكر ثم عاد يقول من جديد:

- فاكر إنك تقدر تشتغل بره؟ كلمة واحدة للمعلمين الكبار تنام على الرصيف.

أبي حسم أمر زواجي من سوسن في ثلاثة حلول: إما أن أقتله، وإما أن يموت قضاء وقدرًا، وإما أن يقتل هو سوسن ثم يقتلني.

حُسِم الأمر، ومرت الزوبعة، نسيت أمر زواجي انتظارًا لفرج الله، وهل أملك غير هذا!

سافرتُ لبعض الوقت مع أعمامي في نزهة لأسبوع، لم أستطع فراق البيت وحيدًا! عدت على عجل، وجدت البيت في ترقُّب مشحون، ماذا في البيت!

أشارت أمي إلى أسفل، نزلتُ جريًا، صدمتني دموع الحاج جلال، لا يبكي، إنما هو في نشيج طويل بلل لحيته!

أبي واجم شارد النظر كمن قُطع لسانه أو شُل فلا حراك! من وسط نشيج الحاج / جلال سمعتُ اسم سوسن وجمله متفرقة حاولت التقاطها، صرخت بكل وجداني، انتفضت وأنا أناديها...

لقد انتحرت سوسن وخلفت لأبي خطابًا:

"يا شيخ فاروق، يا من فهم الحياة وأدرك ألغازها، وتمسك بالقيم وحكم أهله بالعرف النبيل، هل تخدع نفسك باسم الشرف والشرفاء وبيوت الأصل والنسب، أو أنك تبحث عن أم وأنثى تدير رحى البيت وتربي أسرة وتحمي عِرضًا وهي تفهم كل هذه المعاني كما علمني أبي جلال؟ يا عم فاروق، إذا لم يستر مثلك مثلي فمن يفعل! فما أنا إلا طالبة للستر لا أكثر، وإن لم تفعل فإلى

أين أذهب! هل سأبقى عند أبي جلال مدى الدهر، أم أفر وأصبح فتاة للرذيلة وساحة لكل المهاوي! يا حاج فاروق، هل تظن كل بنات الأسر صاحبات فضيلة! فما أنا إلا نتاج واحدة منهن، وانظر في أخلاق من حولك ستجد هناك من هن أسوأ مني وأحط وأقذر، ولكنهن من بيت، ولهذا تقبلهن! والأشد ملعونية أني أسمع عن إحداهن تبيع وتفرط بحدود، أهذا ما تريد!".

لم أكمل خطابها، نادت أمي جلال، البنت خرجت من العمليات وهي في غرفة الإنعاش الآن... لقطتُ اسم المستشفى، أسرعت نحوها

لألقي نظرة عليها لعلها تكون نظرة الوداع، فالطعنة بالجنب الأيمن لسوسن، أما طعنتي فكانت بعقل أبي! أبي يلزم الدعاء والابتهال؛ ليهب لها ثم لنا جميعًا الحياة.

فؤاد سارة

نشرت في الدستور بتاريخ 9/ 8/ 2020

(1)

أبي يعد فيلا ليسكن فيها على مسطح كبيرجدًا، فهي أشبه بالقصر، ويعد أمي بسيارة مرسيدس بسائق إلى جوار سيارته الجيب (الشيروكي)، إنه ينفق هذه الأيام ببذخ زائد عن الحد، سيبدد ما جمعه ولن يترك لنا شيئًا لنحيا به، ماذا أصابه!

لا أنكر أن أبي لم يحرمني من شيء وكذا أخواتي البنات، فنحن نحيا في أحسن حال، جهز أختي الكبرى - آمال- بالشقة والفرش وأظن أن وديعتها بالبنك ما زالت تحتفظ برقم من خمس خانات، وكما فعل مع آمال فعل معي وبالضعف ولكن هذا قليل بالنسبة إلى ما يملك هذا الرجل فماذا تشكل عدة مئات من الألوف لجهازنا وعمارة من ثلاثة طوابق!

هذا كل ما نلناه من ثروته ولماذا يحتفظ بالباقي!

أليس الأولى أن يدفع به إلينا لنضمن أعمالًا مريحة وحياة مستقرة، لو أني سألته في هذا لأجابني كالعادة "لقد بدأت في مستوى أقل منك لا أملك أي شيء ولكنك على الأقل تملك الشقة والأثاث عليك أنت ببعض الكد لتسعد كما سعِدت بكم".

حاولتُ أن أدخل إليه من باب ضعفه وقيده أمي - سارة- بنت الخال التي كلما حلفنا بحياة سارة أمامه لبى لنا طلبنا دون مراجعة وما أجمل هذه اللحظة عند أمي!

فحينها تراها شاكرة ويبدو على نظراتها الامتنان وتلمع عيناها ببريق ممزوج بالزهو والخجل تبدو وكأن السماء لا تسعها في لحظتها تلك ونكاد جميعًا نسمع خفقات قلبها النابضة بالكثير من الجوى والهوى، كيف أبدأ النقاش مع أمي حول الباقي من مال أبي! بالتأكيد سترفض وتؤكد أنه صاحب القرار ما دام يدب على الأرض، أنا لا أريد أن أرثه بالحياة - كما ستظن أمي- ولكن متطلبات الحياة قاسية، فالأيام بدلت الأفكار وحولت العادات وغيرت الثقافة، لن يفهموا هذا الكلام، فهما من أسرة صلبة الرأي تحافظ على المبادئ حتى الغريب منها لأن له قيمة، وتلتزم به عرفتُ هذا من خلال قصة زواجهما ففي كل مرة يزور أبونا المنزل يجتمع معنا ويضمها إلى جناحه - فهو دائمًا على سفر نظرًا إلى أعماله- ويحكي لنا عن ذكريات الشقاء والجفاف، ما أصعب حياته في البداية!

أمي - سارة- تحمل اسم ممثلة فرنسية وكانت طالبة بالفعل في مدرسة داخلية بالقاهرة على النمط الفرنسي تعلمت فيها أشغال التطريز والرسم على الزجاج.

أحست عمتها بما بين الصغار من وفاق وأحلام، ألهبت أحلام ابنها بالتقدم لخطبتها مع تقدمه في الدراسة.

سارة تقسم أمامنا دومًا بأنها ما كانت تبوح بما في صدرها أبدًا! وما كانت ترى فؤاد إلا لحظات نادرة بالدار عندها أو عندهم وتؤكد على حضور الكبار في لقاءاتهم!

تداعبها آمال:

- بيني وبينك، وخارج المنزل أين يكون اللقاء؟

لكن فؤاد يؤكد أنه كان يتحين الفرصة ليراها ويعجب كيف أحست أمه بسره!

وشدت على يد زوجها ودفعته ليطلب سارة ليتزوجها فؤاد:

- ما العمل؟ نطلبها بشرع الله؛ فتعند، أقول الولد يرغب في بنتكم والعروس ربنا يحفظها تستحي، لقد نظر كل منهما إلى الآخر، لا سمح الله وبعد الشر لو حصلت حاجة بينهما، تولع نار فمن سيكون السبب!

أسرة تدفع أموالها المحدودة لحماية شبابها من العبث. قد كانت هذه الحجة التي جعلت جدي لأمي يبدأ في التفكير من جديد وأراد تعجيز الشاب بطلبات غريبة:

– أنا كفيل فؤاد في العقد يا سيدي – أبو فؤاد يدافع عن ابنه – ما جدوى المال إن لم يصن العرض ويحمي صاحبه من الغلط ابني على حق وهو أبقى من كل مال الدنيا.

كانت كلمة غريبة على آذاننا جميعًا ولم نفهم معناها إلا مع الأيام، حين أخرج لنا الوالد قسيمة زواجه ووجدنا الجد يوقع في خانة اسمها الكفيل.

شرح لنا الوالد المعنى القانوني، أخذتنا جميعًا دهشة وبخاصة البنات:

– أترضى لنا هذا الآن؟

– لا وألف لا، هو فيه راجل كأبيكِ الآن.

بهذا الطوق يجد أبي المخرج من إجابةِ السؤال.

وبالرغم من هذا يبدو أن السؤال وقع في نفس أبي بطريقة أخرى وينظر لأمنا ويستغرقه النظر ويبتسم وكأنه يردد في سره، ما أشد جنونك! بينهما لغة غير منطوقة دلالاتها كثيرة.

تقطع سالي الصمت ملحة على أبي بأن يجيب.

فترد أمي :

– والله صحيح الزمن غير الزمن، أنا كان نفسي في بيت، الأيام دي أسمع حاجات في غاية السوء عن البنات أو الشباب، الحق والله سأكون خائفة، لكن

ما دام ابن أصل وأبوه رجل شهم وكريم وكفيله بحق والشاب جد ومستقيم وواضح النوايا وله مستقبل فلِم لا!

الحق إنه تَرحَّم على خاله - جدي لأمي- كثيرًا وبشكل لافت كأنه يعتذر عن خطأ صدر منه نحوه، تحس أمي به سريعًا ولا تدع لحظة الظن السيئ تستقر بسمائه أكثر من هذا:

ـ لا تخف يا فؤاد فأبي كان راضيًا عنك كل الرضى وكان يحبك جدًّا، وأنت تعرف هذا!

هكذا تدخلت أمي معه لتمسح عنه حرجه قبل أن ينصرف عنا لينام.

هكذا كان أبونا بالنسبة إلينا نسمة صيف مرحة تهب بالفرح لكن نخشى أن نتصدى لها فتص

(2)

إن كانت الحياة على أيامك صعبة فهي الآن شبه محالة، ما أطلبه حق إحسان منك.

يضحك أبي عندما يسمع حق إحسان، لأن المعنى لا يستقيم فإما هذا وإما ذاك، أنت كنت آمنًا!

يتكافل الجميع بالمساواة برحابة سماء الأحلام، ضحكات أمي وطرقعات يدها توقف الكلمات في حلقي وتزيد المرارة في شعوري أكثر وأكثر وتأخذ مني زمام الكلام بشكل ساحر وتأسف لأنها لم تربِّ رجلًا:

- حكم عليَّ أبي بأن أغادر القرية إلى تلك المدينة بلا حفل أو فرح كأني عار يبرأ منه، لأكون مع زوجي ولا أعود لدار صهري إلا بعد مضي خمس سنوات، بدأت مع والدك في شقة كانت عبارة عن حجرة وصالة والمنافع بحي (...) أيامها ما كان ليؤنسني في الليل إلا نقيق الضفادع وعواء الكلاب، أما الحجرة ذاتها فكانت بلا طلاء أربعة جدران وشباك على فناء داخلي، والصالة ذات طاقة زجاجية على السلم، وصبرنا، وصمدنا للرهان...!

كادت تفلت منها الدموع وهي تتذكر أنها تنازلت عن دراستها الجامعية لترشد النفقات، وعملت بالحصة لتدريس اللغة الفرنسية في مدرسة خاصة:

- لم أتذمر أو أسعَ نحو ما هو أكثر من بيت آمن ورفيق لين أليف لم يقصر، كان يبذل كل ما وسعه سواء بالعمل في التراكيب الطبية مع الصيادلة وحسب ما أمكن!

يبدو أبونا في هذه اللحظة لامع العين، على وجهه كثير من الامتنان.

- رزقنا الله بالمولودة الأولى آمال، وتحملتُ آمال، وسنة الخدمة العسكرية، وجفاف الموارد، والخوف من الفراق، لأصبح أرملة الشهيد وأنا في تمام العشرين وأبكي ويستبد بي البكاء خوفًا من الفراق فأنا لم أكد أسعد بعد بمعنى الأسرة وقرة العين، ألا تحمد الله أبدًا، يكفيك أن أباك دفع عنك ضريبة الدم وجاء بالنصر وسدد عنك خزي الهزيمة!

لا أستطيع أن أجادل أمي أكثر من هذا، إنها تود أن تنال أغلب الباقي من أموال أبي، إنها تحصد مقابل رهانها.

- يا نادر، لكل فتى في شبابه حلم يتمنى أن يناله من يد القدر ليسعد ويستقر، وقد كان حلمي الخاص جدًّا هو البيت الواسع ذو الحديقة، أهذا الحلم كثيرٌ على أن أناله! الحكم لك.

هكذا وضعني أبي بين نار الطمع والأنانية، ونظرات الظن السيء لأني أنتظر فراقه لا بدَّ من الاستسلام لفكره حتى إنه صرح قائلًا:

- كل ما أملك لكم، ودائع البنك أظنها كفاية وزيادة، أحب أن أشم نفسي بعد كذا وعشرين سنة غربة، وقبلها أربعة شقي!

عادت الأوضاع إلى ما كانت عليه، واستقر أبي بالقصر المشيد، المساء هادئ وخرير الماء خلاب، ونسمات محلاة بالعطر والنرجس، واهتزاز النخيل وعند جلوسي في تكعيبة العنب ذات الظل الشجي الندي وأبي يعبث بلحيته القصيرة تارة ويتمدد على كرسيه ويعقد يديه خلف رأسه تارة أخرى ويردد بهمهمة نكاد نفهمها - من كثرة ما رددها - "ربِّ أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي...".

ويتبعها بالحمد والتكرار مرة أخرى، "المال والبنون..." اللهم لك الحمد!

وأمي في حديثها مع البنات وأولادهن: "والله هؤلاء العفاريت سأفتقدهم وأتوحشهم جدًّا...".

ما السبب؟

إنها على سفر مع الحاج فؤاد في نزهة يفقد فيها عدة آلاف، فإذا بالمفاجأة الخارقة لكل قوانين العقل والمنطق.

لقد حجز الوالد العزيز تذكرتين في رحلة بحرية حول العالم وتستغرق هذه الرحلة عامًا كاملًا، نظرت إلى أبي لأتأكد من هذا الخبر، فلم يبد أي إنكار ولكنه أكد:

- أمامنا الكثير من الوقت حتى يحين موعد السفر.

شيء يتسرب داخلي ويتجمع ويملك زمامي ويتسيد أمري، هنا انفجر بركان سخطي وذعري:

- والله حرام! رحلة حول العالم رسوم الاشتراك بها ثلاثون ألف دولار، وطبعًا بضعة آلاف لزوم الراحة في الموانئ والفسح بالإضافة إلى ما سينفق على ظهر المركب اللي ...

- فلوسي وأنا حر فيها.

رد عليّ أبي بمنتهى الاسترخاء واللامبالاة وكأني كنتُ أسدد سهامًا في الهواء!

- حريتك، فاقت حدود الحمق لحدود الهوس والخبل، عربية بسائق للست سارة، والسبب يرجع لأن هذا دين من أيام الشباب ورد للجميل وتعبير عن الوفاء والإخلاص وكلام جميل منمق تصْدُع له الرأس، اعتدل أبي في مقعده ونظر إليَّ بحدة وكأنه يزجرني بنظراته ويأمرني بالكف قائلًا:

ـ أتحاسبني يا دكتور؟

هنا لم أسمع ما قاله أبي، ولم يتوقف سيل غضبي عن الجريان؛ فأكملتُ:

ـ فوق هذا فيلا في وسط أرض ثمنها لا مستقبل لها وليست جديرة بالسكنى... لمَ؟ لأنه حلم الباشا منذ كان يحبي في أرض العمدة الكبير، وفوق هذا رحلة حول العالم، هذا أمر لا يطاق...

استبد النقاش وعلا صوتي في تعليقات غير مفهومة، وخرج الكل عن نطاق المعقول، شيء ما يترجرج في غيم الغيب، وصار واقعًا فقد أفقنا جميعًا على صوت صرخة من الأب، لقد قذفتُ والدي ببراد الشاي الفخَّاري الأبيض، سقط الشاي على رقبة الأب وصدره فأصاب النظارة في وجهه فهبت سارة صارخة:

- يا كنز عمري كله!

دافعةً نادر من طريقها ليسقط فوق المنضدة محطمًا ما عليها ولا يبقى إلا صوت أنين في صدر فؤاد وهمهمات معلقة ولعنات تتهاوى من فم سارة على رأس ابنها ودمعات على زوجها الملسوع بالنار وأسوأ منها دموع البنات:

- لكِ الله يا سارة وأنت يا سالي لك من بعدي!

ظلت هذه الكلمة تتردد على لسانه طوال الطريق وعلاجه السريع بالمستشفى، وكانت سالي صغرى البنات كلما سمعت أباها ازداد نحيبها.

دخلتُ على أمي في المستشفى وأنا أكاد أتمزق خجلًا وخوفًا من ثورتها، هذا ما توقعته، لقد بصقت في وجهي ونسيت ما أصاب يدي من قروح الزجاج أثر دفعها لي على المنضدة، منعتني من الدخول على أبي، حذرتني من العودة هنا، ثم نادتني:

- نادر، مفاتيح السيارة فهي ملك والدك وباسمه، وبالمناسبة لا مكان لك في البيت؛ فابحث لك عن شقة أخرى...!

تركتني على عجل لقد أفاق أبي وسأل عنها وهي في الطريق إليه، دخلتُ في أعقابها، أحستْ بي، طردتني وما زال صوت بكاء سالي يرن في أذني ولهفة أمي على أبي وقلق أبي على أمي أمام عيني، وحرارة بصقة أمي على وجهي تلسعني، تحرقني، تؤرقني بشدة، إنها آكلة آكلة...

لم يهـدأ لسعها بعـد!

دقات قطار اللوم

"سيمضي العمر ونحن ننتظر.. ولماذا ننتظر؟!

تهَب شبابك وتذبح أحلامك وتمضي أيامك لتأمين المستقبل... أي مستقبل؟ عُد، أنا في انتظارك. لِمَ نعاني الحرمان... فالحياة قصيرة وسنظل هكذا نطارد سراباً علي شاطئ أماني الشيطان.

فبربك عد... وأقم خيمة الوصال.. فأنا راضية.. وإلاّ فمتى وربِّك سنحيا؟!".

التوقيع/ عروسك المهجورة

عاد ملبِّي النداء.. أعلن الزفاف.. نال الإذن بالوصال.. أكلت مراسم الزفاف.. حصاد أشجار (حقل البعاد).

ما سعدتُ باللقاء حتى لوّح لي بالسفر! فما زالت الفرصة في يده.

عذراً، بلاد الغربة ترفض منحك إذن الدخول!

لم أكد أرسو على شاطئ الراحة والأمان حتى حلّق زوجي في سماء الشقاء.. أتعبني ولكنه اختياري ومشروع حياتي العام ولا مجال للمقامرة.. هو رصيد الاستقرار في بنك السنين عوائده الحنان والضمان.

رجولة واعية... تصيبني هذه الرجولة بالخوف! فهو يريدني بألف وجه... ويرغب كل نساء الأرض، لكنه اكتفي بي حتى حين!

حتى حين.. أذكرها بابتسام وبسخرية كمزحة... أيفعلها مع غيري ارتشافاً أو وصالاً؟! لهذا كنا نتحين الفرصة للقاء عابر.

كنت أطعمه بقدر... ليظل في مينائي متلاعبةً به أمواج صدري.

انتهت أيام التغريب الثانية.. ومن قبلها كان قد استقرّ الرأي علي مشروع بدخل ثابت، فالمشروع جيد، والأيام لها ربّ كافٍ حليم.

وقفت أمام المرآة أستحلفها أي الأشكال أبهى وأبهج؟، أسترجع كل ذكرياتي... لا تسعفني الذاكرة من النشوى..

لم استطع أن أكمل حواري مع المرآة فالهاتف يرن بكثرة، متي سيصل؟!.

أعلم اليوم فقط لا الميعاد، فهو يكره أن أترقب وصوله بالمطار ويخشى إرهاقي،... أم الحق.. فأنا أدري لماذا؟ لأنه يحتفظ بحلاوة وحرارة اللقاء للبيت حقاً:-

أخيراً سنتلاقى فلا فراق، سنهدم كل المسافات ونسقط كل الأقنعة، الآن لا حرج أو ترفع، سأداوي ضعفه وأروي اشتياقي امتزاجاً، الآن نرجم كآبات المسار الشائك ونحتال لنجتاز تيار نهر الحياة.

الآن سأنال دفء الأنفاس وحرارة الأمان على شاطئ الحياة بجوار النبع الهادئ، إنه يملأ دنياي وعقلي وروحي وصدري، إنه رجل ذو ضمير، هكذا دوماً أراه!

لم أعبأ بكل هداياه ولم تلفت انتباهي رغم التنوع، لم أكن أعبأ بهذا، لكن كنت أخشى لهفته، فأنا اليوم فتنة هو يخمدها، وأنا أشعلها.

زادت بيننا الثقة، فقد خمدت الفتنة وهدأت اللهفة وأخذت الحياة شكلها الطبيعي والمعتاد.

"سميحة عليك بالحضور - والدك في النزع الأخير"

هذه البرقية جعلتني أهب على عجل لأعد لأمر سفري، لم أفق أو أستوضح ماذا فعلت إلا مع ركوبي القطار، علي صوت دقات القطار أسترجع ما حدث؟ وتتدافع الخواطر على رأسي.

كيف سيمضي زوجي الأربعين يوم؟، هل دينا على مستوى المسئولية؟، هل سألحق أبي وأتمكن من رؤيته؟، هل سألحق مراسم الدفن؟

هل قرأ زوجي الخطاب؟ كان يجب أن أنتظره ونغادر سوياً.

فجأة سكتت كل الخواطر، ولم يبق إلا طنين يحوم حول دينا.

دينا جارتي، إنها أكثر من جارة وأقرب من ذلك، أشركها في هدايا زوجي.

إحدى جواري أيام البوار، كانت تعمل بمركز طبي تخصصي كبير يقصده الصفوة من كل البلاد المحيطة.

من خلال عملها تزوجت من ثري عربي، اتخذها زوجة وممرضة فهي جميلة بحق لولا بعض تشوهات الفقر، أمضي معها ما شاء، فر عندما تحسَّنت أحواله، شقتي كانت جزء من شقتها، تخلت عن الثلثين لكي تجد ما تعيش به.

حين صفت لي وحكت عن زوجها الهارب كنتُ ألعنه، إنها ما زالت زوجته، بدأ النعاس يثقل رأسي؟

لقد تركتُ مفتاح الشقة لدينا لكي تفتح لوردة حين تحضر في الغد، انتبهت مفزوعة، إنه مجرد كابوس هل يتحقق؟ لا.. يجوز.. فدينا ستعطي المفتاح لوردة لا أكثر لتلبي الطلبات، الآن سأنام بلا حرج.

تم العزاء وانتهت مراسم الجنازة وشارك زوجي في كل السرادقات، أنفق مع اخوتي بسخاء.

طلب مني العودة، لتلقي العزاء في البيت، والعودة يوم الأربعين، فالكبير من الرجال، لا معني لكونك البكرية.

أما عن الميراث فما كان من نصيبك فهو لك، ولا داعٍ للخلاف، وعقب الأربعين سأستأجر سيارة لأنقل أمك إلي بيتنا، فهذا حقك فأنت (البكرية).

أمام هذا كله رجوته بأن يدعني أكمل الأربعين يوماً بالبلدة دون مشاق للسفر، أما عن الأولاد..

- الأولاد عند أختي، وبهذا الشكل سأتركهم هناك، فأنا لا أتابعهم.
- وردة... بتأخذ المفتاح (قاطعها زوجها).
- ربنا يكملك بعقلك، من يترك مفتاح شقته لجارة أربعين يوماً؟!
- ....
- مهما يكُن -عشرية وعلى الفطرة- لكن بأصول.

كان يعبث بغيرتها لعلها تعود.

- ....
- تتصرف في الشقة على راحتها، إذا شافتني تنكسف وتمشي.. لأ.. أبداً...

لم تكن في حالة لتفهم هذه الإشارات وتفك ألغازها سواء كانت بالكذب أو هي الحق المبالغ فيه لمأرب في نفس الزوج.

أخذتني إجراءات الميراث ومرض أمي عقب الأربعين شيئاً ما، يجوز لزوجي أن يتكدّر الآن.

ودعتُ أمي بحجة أنني سأسافر لأطمئن على الأولاد فقط وأعود في نفس الأسبوع.

كانت الوساوس تؤرق مضجعي حتى ليلة أمس.. لقد تنبهت مفزوعة على كابوس مخيف..

"زوجي يدخل الشقة فيجد دينا مستلقية على الأرض ومتكئة على الكرسي في جوار المطبخ أمام باب الشقة، وتتعلل دينا بأن وردة غادرت مبكراً لطارئ وتركت بقية مهام الشقة دون أن تتم فقامت دينا

بها، ويتطلع الزوج في دينا ويبقى في مكانه حتى تتمكن دينا من تبديل ثيابها.. العيب عليك يا سميحة.. همسات زوجي"

علي طول الطريق تلعب بي الوساوس، هل سيطاوع دينا؟! هل ستتلاعب به دينا؟ وما أكثر الوساوس.

دخلتُ شقتي، كان الوقت مبكراً، سمعت صوت غناء، إنه صوت دينا بالحمام والباب مفتوح، في غرفتي أشياء ليست من متعلقاتي، احتفظت بإحداها ودخلت غرفة الأولاد أرصد دينا وحركاتها.

"يوه.. الراجل بيحاورني.. شال الحاجة فين؟ وماله أي حاجة والسلام"

مشرقة الوجه.. باسمة.. متراقصة... وارتدتْ فستان قصير وغادرت الشقة.

بكيتُ بحرارة وغزارة، والتهبت عيناي من البكاء المكتوم.

طفت بالشقة أرصد الغريب من الأزياء...

لا إنها هنا منذ عدة ليال، تنوع الأزياء أمامي يدل على هذا، جففتُ دموعي.. وتماسكت، نزلت سريعاً.. بعدت عن البيت، اتصلت بدينا على

أساس إنني بمحطة السكة الحديد منذ ساعة وأنا في الطريق إليهم، فرصة لكي تسحب ذيولها، وليكن صدامي هادئ.

شكرتها وأنا أحترق غيظًا وألح على حق الجوار والعشرة.

عاد زوجي، صدمه احمرار عيناي، لم أتكلم، أخرجتُ ما كنتُ أخفيته من ملابس دينا... فررتُ من أمامه وأغلقتُ باب الحجرة حتى اليوم التالي... لم يحاول الاعتذار.

غادر إلي عمله صباحاً تاركًا ظرف به الفلوس، دون أن أطلب! غادرتُ إلي بيت الأسرة.

دقّات عجلات القطار في أذنيّ كأنها الأنّات...

بدأتُ أراجع الموقف... من المذنب؟ أنا ألوم دينا... لا ألوم زوجي؟ تذكرت تلميحاته من قبل عن دينا... ومن قبل ضعفه أمامها أوليست دينا هي أيضاً امرأة؟، إذن اللوم عليَّ!!

سميحة أخذك الواجب نحو الأسرة أكثر مما يجب... و... و... هذا هو ذنبك يا سميحة؟ فماذا عنه هو؟

هو - الزوج - لقاءات على هامش شاطئك... وحين بدأت أرسو وأستقر وجدك تلقي به على شاطئ أخرى، شاطئها هي... دينا.

دينـا جارية زمن الجفاف - كما أطلق عليها- لا امرأة مطلقة ولا هي زوجة من ناحية أخرى، أذلتها الدنيا فباعت أغلب شقتها، أتحقد علي بهذا

السبب؟ أم لأنها تمنت أن تكون زوجة وأم وتحطمت الرغبة على باب وزارة الخارجية.

ألم تبك جمالها؟ آه - واستحضرت العبرة عيني سميحة - اضطربت نفسها لحظة، جمالها لو أحسنت استغلاله مع بعض الحيل البسيطة، لكانت سالومي، هذه هي المحطة وصلتُ إلى البلدة.. لم تصل إلى قرار بعد، أهي ذله أم ذنب وإصرار، التسامح لين، لابد من الطلاق.

بعدها بيومين هبط الزوج البلدة ومعه البنتان، طلب حديثها بعيداً عن العيون، طلبت الطلاق، حضوري اعتذار، أحسست بلكنة الدمع في الحديث، ظل هكذا حالنا ثلاثة أيام، أخذته العزة.. انسحب وترك لي وعد بالطلاق خلال عشرة أيام إذا لم أعود فيها للبيت.

كم كانت سعادتي بها وهو يحدد موعد الطلاق، كان كلما حدد يوماً - أربع -" يصمت يتلعثم حتى حسمها بهذا الوعد والوعيد".. كنت أكتم ساعتها ابتساماتي وأخشى أن يرى في عيني فرحتي، سأعود بعد أسبوع حتى أزيد من ألمه ولن أزيد حتى لا يقع ما أكره، فهو إن وعد صدق.

سميحة أنت تدري دواخله إلي هذا الحد فلم الإهمال؟، سأعود سأصمد في المعركة، ليست معركة.. كانت مجرد مناوشة.

أنا أشتاق إليه، لساني يهتف له ارتعاشاً، عيني تومض برؤياه، وصدري يخر ساجداً خشوعاً وتوسل، ولكن عقلي ما زال يرفض بألم، قبلة لينة علي الجبين كانت صلاة التوبة.

دقات القطار الآن لا صدى لها عندي.

البريق

نشرت في أخبار الأدب 17نوفمبر 2019

كان ميلادها بقرية صغيرة، تجاور المركز، سعت في التعلم، حلمها هناك بالمدينة، تجدُّ في سعيها، فقر أسرتها لا يؤثر على حساباتها، لا تشعر بالكراهية أو المرارة الممزوجة بالأسف لأن هامش الاختلاف المادي ضيق بين كل بنات الجيل، ومحدود ولا يكاد أن يُلحظ بينهن.

تتكيف - قدر جهدها- مع صعوبات الحياة، يعجبها ثناء الكل على لين قوامها ودقة نحتها وسمرتها الخلابة.

الأب يستمر في نضاله مع الحياة، لا ترهق الأب حتى لا يحرمها من حُلمها، بدأت تلوح في سمائها فرص الزواج وبهذا تنقذ أسرتها إذا أحسنت الاختيار، دفعها الأب إلى سوق النخاسة متربصًا للفرصة المواتية:

- لقد عانيتُ وشقيتُ في الحياة، فما الضرر لو حملَتْ عني بعض العبء!

هكذا برر الأب تصرفه أمام شيخ القرية وأعمام تحيَّة، أما أخوالها فكانوا على الحياد.

- أنت تردُّ الجميل بأثمن ما تملك، لحمك، الشكل زواج، والحقيقة أعوذ بالله؛ ولن يخسر أحد شيئًا إلاها!

هكذا تدخل العم مخاطبًا رجولة أخيه ونخوته، ولكن الأب يرفض كلام

العم، وأغلظ له في القول:

- لما أمد يدي يعني انتم ها تطلعوا من جيوبكم وتعطوني؟ ولما أجوع ها تجيبوا من بيوتكم وتأكّلوني...؟ يا ناس ما حدش له صالح بيَّه!

عمي، عمّي، حاول، انجدني!

تحية تستعطف العمَّ بكل الوسائل، قبَّلت يديه، وبكت أمامه، وسقطت على الأرض وانكفأت تقبِّل قدميه فعلق:

لا حول ولا قوة إلا بالله، قومي يا تحيَّة، ما فيش منه فايدة ولا عايدة، أبوكِ يا بنتي راكب راسه، وكل ما اكتَّر الكلام يزيد عِنْده!

طب... أشتغل زي كل البنات في حاجات وحاجات لما يهل الصيف، لأ، من دلوقتي، بس بلاش الجوازة دي!

سبق السيف العذَل يا تحيَّة، لن أستطيع، اعذريني!

همَّ العم خارجًا، تشبَّثت بأذيال ثوبه، فرطت المسبحة من يده، هدهدها، اختلط الدمع، قبلة على الجبين كفَتها لتسَلمْ المقادير لله.

لجأتْ إلى الفن البشري القديم، فن الاستسلام، اكتشفت عنف رجلها، لم يرأف بها، زاد عذاباتها عذابًا ولج منه، وعذابًا اشتعل بداخلها، مع قطرات العرق وسيل اللعاب - تلعن أباها- تسب دنيا الرجال، يأخذها التعب، تستمتع بأحلام الماضي وأماني الصبا، في المنام تحاول اعتصار ليمونة حياتها لتخرج منها شرابًا مستساغًا.

تستعدُّ لتدخل عالَمَ التجارة؛ تتحين الفرص - هي أيضًا- فتتلاعب بزوجها، تسعى إلى الكسب، تختار الوقت المناسب، تحسن اختيار الطلب "كل ما أملك فهو لك، لك ما تتمنى وزيادة، فأنت مفتاح سعدي!".

بدأت تجارة الملابس الحريمي، ربحت بسبب حسن استغلالها حلاوة لسانها، سارت مع تيار الأماني، فُتحت كل أبواب التجارة أمامها، أخذت من مال زوجها لتدخل عالَمَ العقارات...

"من دلها على هذا المجال؟"،"ياما في الجراب يا حاوي"، "تقول موسى يطلع فرعون"، "كل ده وناقصة علام، لو كانت اتعلمت كانت عملت إيه!".

هكذا أصبحت حديث المدينة بعد أن قررت إنشاء فندق كامل

بالمدينة "والله صدفة، وفد من الطيارين الروس جاء لاستئجار شقة مفروشة عندي لمدة ستة أشهر، وتمنى أحدهم لو كان في المدينة فندق متكامل لكان أحسن لهم!".

اقتنصتْ الفكرة وأسست فندقًا والتوسعات به لا تهدأ، خبا بريق الزوج، ما عاد يُجدي، كبر الأولاد، ثم ماتت الزوجة الأولى، تتكفل بالبنات الأربع من الأخرى، خرجت بنتها الكبرى محرَقة الوجدان من تجرِبة زواج فاشل، البنات الأربع ميراثهم، يجب حرمانهم، ضاعت البنت الصغرى، ابنها يذبح تفوقه، سيان، تردُّ الصفعة الآن لدنيا الرجال على ظنها، تتاجر بعقود

الزواج للصغيرات "معذَّب يذيق الآخرين من مرارة كأسه!".

من تنجو من تجارة الحلال تهوي بشباك تجارة الظلام، كثرت ضحاياها، وراغبو الانتقام أكثر، أكثرهم مرارة البنات الأربع وأخوالهم، التجار المنافسون، أهالي البنات، البنات الأربع راضيات بالعيش في كنفها حتى لا تحرمهن هذا القليل.

يصطدم ابنها في طريقه بجارة شابة، تسعد بمعرفته وتعزف على أوتاره الكامنة وتوقظ فيه الأماني الصغار، يشب في صدرها نبتًا أخضر كريمًا، يطفئ من لهيبها ويضمِّد جراحها، ويصمت صوت الانتقام في عقلها وتغضُّ الطرْف عن حقوقها الضائعة عند تحيَّة، أمه، باحت له بسرها، تلقاه متأسفًا:

- أبحث عن رجل يكفل لي ركنًا آمنًا من شمس التربص وفخ القنص...

صدّقها، ظنًا منه بأن الأيام القادمة أكثر دفئًا وحنانًا:

- يكفيني أني سلبتها ابنها وصار حصني وملاذي من ذل الأيام!

"إذا كانت زيجة فهي تسديد ديون قديمة، وإن كانت مغامرة فهي غالية الثمن، ولكنك يا ابني أغلى، تزوج واكتم الخبر".

هكذا علقتْ على زواج ابنها، عادت لمسار حياتها المعتاد، الفندق، الأتيليه، المعرض.

ما زال طارق ابن أخت المرحوم يعمل عندها، يوقظ في دمها شيطان الجمال

بغزلياته البسيطة، تلاعبه وتستمر معه كأنها دعابة -إنها تسترد جزءًا من ديون الماضي- ما أحلى هذا الشعور! أين ذهبت تلك الأيام، أحقًا ما زال عندي بعض البريق!

تبتسم بشيء من الألق والعجب والاستغراب:

- إنني على أول الطريق وأدرك أبعاده جيدًا!

هادنته وأخمدت صوت العقل، تسعد بأحاسيسها الجديدة الوافدة عليها، فهي لم تذق مثل هذا وهي شابَّة، فلعلها تجد بعضًا منه الآن.

أمَّا ما يسعدها حقًّا فأن فخاخ الصيَّاد لم تظهر بعد، فهي بالنسبة إلى طارق ليست إلا مشروع حياة وسبيل صعود وطوق نجاة للأمان، تبدأ أحاديث الناس تخرق سماءها عن المتصابية التي تلعب بالشاب الصغير، عن المرأة الباحثة عن عش ودنيا دافئة "لست بهذا الغباء، هل أصاب عقلي الوهن، أم أنه يصبر لكي ينال مأربه... ما مأربه!"، "تساهلت معه في الفندق، لم يتجاوز، تولى الحساب المصرفي، لم يتجاوز، ماذا يريد!".

هكذا تحدث تحية نفسها دائمًا، عندما أرادت قنص المتعة أفسدها طبعها.

اعتادت دعابات طارق، لقد يئس منها فغادر المكان، بحثت عنه، فاتحها بوضع النهاية الحقة، زاغ البصر وتحشرج الصوت وانزعجت، طارت فرحًا، أحقًّا ما زلتُ موضع أمل ورجاء!

"لا، لا، إنها إحدى سخافاتك، لستُ لك بمطمع، المال، دارت الأيام فخذ ما تشاء ولا تعبث بي، والتجارة والأعمال، أنت كنتَ من قبلي مع المرحوم، تفهم فيها الكثير، والعلاقات، أنت تمسك زمام التجار فماذا تريد!".

صرختْ وهي تكرِّر:

- ماذا عندي تريده؟

أنا لست غبية، إن أردتم الانتقام فليس هكذا، سأرد لكم ما تشاؤون، لا تعبث بي وارحمني ألا يكفي أن سلبَتني امرأةٌ ابني وسممت

وعيه، وغيرها يريد الانتقام!

عمي، عمي، ارحمني، أنجدني، خذني!

هدأت، قد أسكرتها اللحظة، فاجأتها المعاني، بدأت تضحك واستمرت في ضحكاتها وهي تهذي، دمعت عين طارق، فلقد ذهب السحر الناعم وخبا العقل الواعي.

تمت

خليل الزيني

الفهرس

الحرمان.. 7
أسئلة الأيام الصَّعبة.............................. 9
تهاني.. 17
العِصِي... 21
الشاطئ....................................... 27
الحفلة... 29
النميمة الحلال 33
روضة النسيان................................. 41
زوار الأحلام.................................... 47
سوسن وبيت الحمد............................. 61
فؤاد سارة...................................... 67
دقات قطار اللوم 79
البريق 89

رسالتنا في المكتبة العربية للنشر والتوزيع:

نشر كل إنتاج إبداعي بجودة عالية وأفكار أصيلة تعبر عن هويتنا العربية وتاريخنا العريق، حتى لا ينزف الوعي من ثقوب الذاكرة، بأعمال تحترم قيم مجتمعنا ومعتقداته، لا تساعد في نشر العنف أو العنصرية، ترسّخ لمبدأ المساواة والحرية والعدالة، والسعى نحو الارتقاء بالأدب العربي في كافة مجالاته، والوصول به نحو العالمية.